مها حسن

بنات البراري

رواية

الكوكب
رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

بنات البراري

مهـا حسـن

بنات البراري

روايــة

الكوكب
رياض الريّس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

Daughters of the Wilderness

Novel

Maha Hassan

First Published in June 2011
Copyright © **Al-Kawkab Press Services S.A.R.L.**
An Imprint of Riad El-Ryyes Books S.A.L.
BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21 - 504 - 9

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

الطبعة الأولى: حزيران (يونيو) ٢٠١١

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: هوساك كومبيوتر برس

المحتويات

الإهداء	٩
أحمر	١١
أصفر	٢٣
بنات البرية	٦٥
أحمر قانٍ	٧١
برتقالي	٩٥
أزرق عابر	١٢٥
أسود	١٣٩
أخضر	١٤٥

الإهداء

إلى:

بنفشة، التي أجهل اسم عائلتها.. عرفت أقاربها، ورافقتني قصتها، وروحها، وأنفاسها..

هدى أبو عسلى

زهرة عزو

دعاء خليل أسود

وجميع النساء اللواتي أُزهقت أرواحهن باسم الشرف.

أحمر

في اللحظة التي انفصل فيها الرأس عن الجسد، سقط الرأس الثاني في الأسفل.

مشهد بالغ الغرابة، جسد مفصول الرأس، يتدلى من بين الساقين رأس آخر.

أهو جسد يحمل رأسين؟ رأس في الأعلى، وآخر في الأسفل؟

انشغل الحاضرون بالرأس الأول، المفصول عن جسده. لهذا لم يلحظ أحدهم بروز الرأس الثاني.

المرأة العجوز الجالسة خلف النافذة، الملتصقة بكرسيها، لا تتحرك كما لو أنها ميتة، إلا أننا نعلم بأنها ليست هكذا، فقط عير دموعها.

هو أيضا، الرجل العجوز الجالس خلف النافذة، الملتصق بكرسيه، لا يتحرك كما لو أنه ميت، إلا أننا نعلم بأنه ليس هكذا، فقط عبر بريق عينيه.

الرأس الجديد، الواصل للتو إلى الحياة، لا يصرخ، لا يعلن ميلاده، كما لو أنه عرف وأحس بأن وجوده مرفوض، منبوذ.

ـ ٢

لقد وُلدت في الدم. أول ما رأيته وأحسست به هو الدم. دم في كل مكان، يغزو المكان. أول صوت سمعته، هو صرخة الخوف. صرخة منعتني من البكاء أو الصراخ. صرخة أخافتني، فوُلدت بصمت غير لائق بطفل حديث الولادة، طفل يدخل الحياة دون صوت. رغبت في الصراخ، إلا أن ذلك الوجه، والعينين المذعورتين، خنقوا صوتي، خنقوا صرختي.

يا لها من مفاجأة! يولد جميع الأطفال في أجواء الفرح والسعادة، فيعبّرون حين وصولهم إلى الحياة خارج أرحام أمهاتهم، يصرخون بصوت عالٍ، إلا أنا!

وُلدت دون أي حق، لا بالصراخ ولا بالبكاء. كما لو أنني وُلدت خارج الولادة! وُلدت سابحة في بركة من الدم، دم رحم أمي، ودم جسدها المذبوح!

توسلتُ إلى عينيها القريبتين مني، المحدقتين بي، أخاطبها بلغة الأجنّة، التي تفهمها الأمهات: أمي، أشعر بالبرد، أحتاجك، لماذا تتخلّين عني؟، ما هي جريمتي؟ اقتربي مني، أحتاج إلى رائحتك،

أحتاج إلى ذراعيك، أحتاج إلى ثدييك، أحتاج إلى حنانك وملامستك. الجميع يتحلّقون حولك، ولا يراني أحد. لا أحد يعرف بأمر ولادتي. أخبريني، لماذا أنا غير مرئية، شفافة، غير مقبول بي، غير مرغوب فيّ!.

سقطتُ هنا، بعيداً عنك، أنت الوحيدة التي تراني.

أمي، أنا خائفة.لا أستطيع تحمّل هذا الرعب في عينيك. ياه! ستنطبع هذه الصورة في ذاكرتي إلى الأبد: منظر عينيك المذعورتين! أرغب في الصراخ: «أوقفوا هذا الدم!». نظراتك تهدئني. حسناً أمي، في انتظار انتهاء كل هذا، هذا الكثير على طفلة تصل إلى الحياة للتو، اسمحي لي بالغياب عن المشهد، اسمحي لي بالنوم.

ـ ٣

«لا تقتلوني أرجوكم، أتوسل إليكم.. لا تقتلوني.. الرحمة! لا تقتلوني.. بحق السماء.. لا تقتلوني».

راكعة على ركبتيها، متوسلة كلاًّ منهم، مقبّلة الأرض بين أقدامهم، راحت ترجوهم كي يبقوا على حياتها.

خلف الأبواب الموصدة، كان سكان القرية يسمعون توسلاتها، نحيبها.

قبّلتْ قدميّ والدتها، زاحفة عندهما: «أمي، ساعديني، أنا حامل! دعيني أعيش فقط لوضع جنيني واقتلوني بعدها.. أمي، أنت تستطيعين منعهم من قتلي، ساعديني أماه، فأنت تعرفين معنى

الأمومة». كادت الأرض تتمزق ألماً من صراخها ونحيبها ونشيجها، كادت الجدران تتشقق عطفاً عليها، هي المتمسكة ببعض اللحظات من الحياة، لا حرصاً على حياتها، بل أملاً في منح الجنين الذي يتحرك في رحمها فرصةً للنجاة وللعيش.

مقبّلة حذاء والدها: «أبتاه، دعني أعيش حتى ألد طفلي، اقتلوني بعدها. تفصلني عن الولادة ساعات قليلة، لا تحرموا طفلي من الحياة، أبوس قدميك أبي، دعني ألد ثم اقتلني كما تريد.. اذبحني كخروف بين يديك، مزّق لحمي، قطّعني، ولكن فقط، دعني أضع طفلي». متمرّغة على الأرض بينهم، بين أمها وأبيها، وإخوتها الثلاثة، ترجوهم أن يتركوها تعيش لساعات أخرى، حتى تضع جنينها.. لكن، دون جدوى.

ـ ٤

أمي.. أشعر بالخيبة، من العنف الذي يملأ المكان، أنا مرعوبة!

لا تستطيع الضغط بقوة أكثر لتساعدني على الخروج. ينبغي أن أجاهد بمفردي للخروج، للانفصال عن رحمها.

أعتمدُ على نفسي، أضغط بقوة للخروج من رحمها التي ستتوقف عن الحياة بعد لحظات. أضغط.. أحفر طريقاً للخروج، بين اللحم والعظام حولي.. أدفع جسدي الضئيل بقوة، وبغتة.. لقد نجحت، ها رأسي يتدلى نحو الخارج!

ها أنا هنا، في عالم آخر، عالمكم، عالم الكبار..

أنظر حولي، لا أحد يراني. الجميع مشغول بأمي. أشعر بالخوف،

أزحف نحو الأرض، أصل إلى جذع شجرة، أقبع هنا صامتة، دون أي حراك.

أظل هكذا.. إلى أن يحل الليل. أشعر بأني سأموت.. ها أنا أموت.. سأموت بعد لحظات.

قبالتي.. رأسها معلق على بوابة المنزل.. أبصره. كما لو أنه جرس كبير متدلٍ، ينوس ببطء.. العينان الجاحظتان تحدقان بي كما لو أنهما ترغبان في مغادرة الرأس لتهرعا نحوي. رغم المسافة الفاصلة بيننا، بين رأسينا.. أفهم لغة عينيها، تقولان لي: «اهدئي واصبري، سآتيكِ على الفور وأعتني بك»، تطمئنني عيناها، فأنتظر.

ـ ٥

لكنني متُّ. نعم، رغم كل شيء متُّ.

رأسي معلّق على البوابة كجرس كبير، معلناً: «قتلناها، نظفنا شرفنا من العار».

أرغب في الصراخ نحو طفلتي.. صرختي لا تتحرك ولا تتجه صوبها. إنها طفلة، أنثى، مثلي، أشعر بها، أراها. أرغب في طمأنتها، ألّا تقلق، أن تطمئن لأنني هنا، وأنني لم أمتْ بعد، لم أمتْ تماماً.. رأسي مفصول عن جسدي، ذبحوني، لكن ثمة شيئاً حيّاً في داخلي، ولا أعرف ما هو. كما لو أنني حيّة بعد.

لا يمكنني أن أموت قبل أن أضمن حياة طفلتي.. لا تقلقي، سأعتني بك من هنا. اهدئي واصبري، لن أموت قبل أن أطمئن عليك.

إلا أن صوتي لا يخرج.. أحاول الصراخ، الكلام.. بلا جدوى.

آه يا صغيرتي.. سامحيني.. لقد اغتالوني قبل أن نتعارف. قبل أن نمارس دورينا المألوفين، كأم وطفلتها.

تمنيتُ أن تولدي بين ذراعيّ، أن أطبع قبلة على جبينك، وأن ألمس بشرتك الناعمة. ترى، كيف قُطع حبلك السري، ومن أخذ المشيمة؟ كيف أستطيع الاعتناء بك، تدثيرك بأي شيء يقيك البرد، وأنا أراك قطعة لحم مركونة أمامي، ولا حول لي ولا قوة. لا جسد لي آتيك به، لا شيء سوى عينيّ اللتين أبثك عبرهما حبي.

تبكين!

أفتح فمي.. بغتة، يخرج صوتي.

كيف يمكن حدوث هذا؟ هذا مستحيل. لقد خرجتُ مني، غادرت جسدي.. ذلك المذبوح المفصول. لقد أصبحتُ غيري!

كيف أشرح هذا؟

سأحاول.

كنت جسداً. ثم متُّ. فصلوا رأسي عن جسمي. ولكنني لا أزال موجودة، أشعر بوجودي. أسمع، أرى، أفكر.. لكن، دون حراك! كل شيء يحدث في رأسي، في عينيّ، إذن أنا رأس! لست أكثر من رأس!

بغتة.. شيء ما خرج من رأسي. اتجه صوب طفلتي. شيء قريب مني. ليس جسدي، وليس شيئاً مرئياً. إلا أنه يشبه الجسد. هو

ليس أنا. إنه/ إنها «لا أعلم إن كان مذكراً أم مؤنثاً».. إنه يشبهني. في اللحظة التي خرج فيها صوتي من فمي. تحرك هذا الشيء الغامض، وطلع مني.

- ٦

أقسم كل شخص في القرية بأنه سمع صوتاً قوياً تلك الليلة، صوتاً هادراً. لم ينم أحد في تلك الليلة. أو حتى تمكّن من إغفاءة صغيرة ولو للحظة. مهما حاول سدّ أذنيه، إغلاق الأبواب والنوافذ، مهما فعل، لا بد من سماع ذلك الصوت.

صوت خارق، صوت أنين يأتي من كل صوب. كما لو أن الطبيعة بكاملها تنتحب وتئن: الأشجار، السماء، القمر، النجوم، الهواء، الأرض.. كل ما عليها يئن بوجع. كل منهم، من سكان القرية، شعر في أعماقه بوجود أنفاس، أرواح ملتصقة به، أرواح تتنفّس قربه. لم يحتمل أحد تلك الأنفاس، شهيق وزفير يئن لصقه، من يمكنه احتمال هذا الأنين القريب منه وكأنه يسكنه!

- ٧

في الصباح.. استفاقت القرية على مشهد عجيب.

هل هذا فجر؟ لا، إنه الصباح، الشمس مشرقة.

هل هذا ضباب؟ لا، فالضباب أبيض اللون، شفاف، أما هذا الأحمر!

هل هذه نار؟ لا، فالطقس بارد.

إذن، ما هذا؟

كل شيء أصبح أحمر.. الأشجار، جدران المنازل، الورود، الأرض، العشب، يا للهول! الأنهار، المستنقعات، بُرك الماء، والماء كذلك.. كلٌ اكتسى اللون الأحمر.

يا للكارثة!

ـ ٨

مع أن الأحمر غزا القرية، الرجال ذهبوا إلى العمل، كما في كل يوم، إلا أن الجميع رأى المشهد ذاته:

الجرس المعلّق، عفواً، الرأس المعلّق على البوابة، ملتصقاً بالجسد.

على البوابة، في المكان ذاته، يحتضن الجسد طفلاً بين ذراعيه. دار السؤال ذاته في جميع الأذهان، جميعهم رأوا الرأس ينفصل عن الجسد: كيف استردّ الجسد رأسه، أو كيف استرد الرأس جسده.. كيف التحما مجدداً؟

تحت الجسد المعلّق، نمت شجرة حمراء صغيرة، نبتت لها ورود على شكل أجراس.

راح الجميع يراقب بدهشة تلك الشجرة التي أخذت تكبر أمام عيونهم.. كما لو أن ثمة ماءً سحرياً يرويها، والأجراس الصغيرة أيضاً، أخذت تكبر وتكبر وتكبر و.. ..

الطفل نائم بين ذراعي أمه. مسترخٍ بطمأنينة. وهذا هو المشهد الحالي:

خلف البوابة، أحياء البارحة ماتوا جميعاً. وعلى العكس، المرشّحون للموت أحياء الآن. الشجرة التي أخذت تكبر، التصقت بالأم والطفل، واشتبكت بهما.

ـ ٩

هذه هي الليلة الثانية بعد طقوس قتل سلطانة. منذ البارحة لم ينم أحد من أهل القرية. أتراهم ينامون الليلة؟

كل شيء هادئ، رغم الأحمر الذي يصبغ لون الهواء، وكل ما عليها.

الجميع مرهق، متعب، يحتاج إلى أن يخلد إلى النوم. ذهب الجميع إلى النوم باكراً.

يمكننا تسمية هذه القرية القرية النائمة. الشوارع خالية، الأزقة شاغرة، ولا يمكن رؤية قط أو جرذ حتى.. كل كائن خلد إلى النوم.

تحلو الأحلام في هذه اللحظات من الهدوء والسكينة والاستغراق في الراحة.

يا للهدوء.. يا للصمت.. يا لل

قبل أن تكتمل العبارة، يُسمع دوي صوت عنيف يكسر الصمت.

صرخة ممزقة السكينة كأنها جرس منبه قوي.. يقفز الجميع من عمق السكينة والاستغراق، مرعوباً من هدير الصوت.

لا أحد يعرف ما الذي يجري، كانوا غارقين في مناماتهم، في عمق النوم، سابحين في عالم آخر. بغتة، تشدهم هذه الصرخة، تقتلعهم من سكينتهم، وتخرجهم إلى عالم آخر. يستيقظ الجميع، مذعورين، مشتتين، تائهين بين عالمي النوم واليقظة.

- ١٠

غادر الكل بيوتهم لمعرفة مصدر الصوت.

أترينهم يا أماه؟ كلهم هنا.

وأنا لا أستطيع التوقف عن البكاء. أنا جائعة! أصرخ بقوة.

إنه صوت صرخة طفل إذن. ولكن ما هو الصوت الآخر؟

يا للغرابة! إن الورود الصغيرة، الأجراس، تبكي وتصرخ.

طبعاً، فهي ليست مجرد ورود عادية، بل كائنات سحرية خارقة، تبكي، تصرخ، تتجادل، تعترض، تطالب، تصرخ..

يا للسماء.. كيف يمكن البقاء هنا، وسط هذا الصراخ المداوم، اللامنتهي، لهذه الطفلة، التي لا تريد التوقف عن البكاء؟ ولهذه الأجراس التي لا تتوقف عن الرنين. لم تعد القرية محتملة، العيش هنا لا يُطاق!

الأثرياء غادروا. لكن ماذا يفعل الفقراء؟

- ١١

استمر الوضع على حاله لمدة أسبوع بكامله. يحيا الجميع داخل الأحمر. يفكرون من داخله، يتنفّسون من داخله، لا لون سوى الأحمر. تبخّرت جميع الألوان ولم يبقَ سوى الأحمر.

الصباح والمساء لا لون لهما ولا هوية، أحمران.. إذ لا صباح ولا مساء.. وقت أحمر، زمن أحمر، عيش أحمر.. قرية حمراء!

أصبح النوم أمنية، أكثر من اللون. لم يعد أحد يكترث بوحدة اللون وسطوته، بل تركّزت الرغبة القوية في لحظات من النوم، وطغت على كل الهموم. كافة سكان القرية يخشون فقدان عقلهم من التوتر وقلة النوم.

تجمّد المشهد بعد رحيل شريف وزوجته مليكة، والدي سلطانة، ماتا ذعراً وكمداً، وهما يتأملان رأس ابنتهما المفصول عن جسدها، معلقاً، ينقّط بالدم.

ليس اللون وحده العائق أو هاجس الأهالي، بل بكاء الطفلة وضجيج الأجراس، تلك الأجراس السحرية النابتة من شجرة جرس غامضة التكوين.

تبكي الطفلة جوعاً. حليب والدتها لا يكفيها. إنها جائعة ولا تكف عن البكاء، وكلما بكت، تداعت معها الأجراس بالرنين والقرع.

أخذت الأجراس تنمو، لا متغذية من الماء، بل من دم سلطانة، دمها النافر من عنقها المذبوحة، ودم رحمها، .. دم كثير لا يتوقف

عن ري ظمأ تلك الأجراس.

- ١٢

بعد مرور أسبوع.. بدأت الأشياء بالتغير.

بوصول إبراهيم، تمكّنت القرية من التقاط أنفاسها والارتياح قليلاً.

أصفر

ـ ١ ـ

ـ لا أريد الذهاب إلى المدرسة اليوم.

ـ منذ تسع سنوات وأنتِ تكررين هذه العبارة، منذ سنتك المدرسية الأولى، هذا لا يُحتمل!

ـ وخلال كل هذه السنوات، تكررين لي: «هذا لا يمكن.. يجب أن تذهبي»، لم تقولي يوماً: «حسناً، ابقي اليوم في المنزل، ولتذهب المدرسة إلى الجحيم».

ـ لأنك يجب أن تذهبي، ليس أمامك سوى المدرسة، هيا.

ـ فقط هذه المرة.. من فضلك أمي.. فقط هذه المرة.. اتركيني في

المنزل، أشعر بألم، صدقيني، أشعر بألم في بطني.. من فضلك، دعيني أبقى اليوم، لا أريد الذهاب إلى المدرسة..

ـ توقفي عن هذا الهراء.. هيا، انهضي وارتدي ملابسك.

ـ أف.. سئمت هذا.. كل يوم مدرسة، مدرسة، مدرسة، يا للضجر!

ـ نعم، كل يوم كل يوم.. هيا.. ألا تكفيكِ إجازة الصيف والربيع ونهاية الأسبوع.. أيتها الكسولة المدللة!

ـ لكن اليوم هو عطلة أيضاً.

ـ هيا، كفّي عن اختراع الأعذار.. ليس يوم عطلة. هيا، أسرعي، أنت تضيّعين الوقت.

ـ إذن، متى يأتي يوم العطلة؟

ـ أف، هيا، لقد سئمت منك!

ـ أف، يا للضجر.. أكره المدرسة.. كم أتمنى لو أن المدارس تختفي عن وجه الأرض.

تكره سلطانة المدرسة، وكل ما تتعلمه هناك، أو لا تتعلمه. وترفض الإصغاء لكل ما يؤذي مخيلتها وعوالمها المتنافرة مع عالم المدرسة.

ـ ما نفع المدارس؟ إنها مملّة، ولا تفيدنا في شيء.

في أزمنة سابقة، لم يكن للمدرسة وجود. كانت الحياة سهلة وبسيطة. لم نكن مجبرين على ترك أَسِرّتنا باكراً، ومغادرة بيوتنا قبل طلوع الضوء أحياناً، ليُغلق علينا بين أربعة جدران، نتنفّس جميعنا، عشرات البنات والأولاد الهواء ذاته، ننحشر الواحد جوار

الآخر.. أف.. أمر ممل، مزعج، نتثاءب ونحن نستمع إلى كلمات لا صلة له بحياتنا، الإعراب والجغرافية والرياضيات.. ما قيمة كل هذا!

لم تكن المدارس موجودة في زمن سابق، لم يذهب والداها إلى المدرسة، لكنهما بخير ولا ينقصهما شيء. فلماذا يجب عليها أن تفعل هي؟ كم كانت تتمنى لو أنها عاشت في ذلك الزمن، زمن الأبوين، حين كانت الحياة سهلة وجميلة، ننام حتى وقت متأخر، ونحلم.. أسوأ شيء في المدرسة أنها تبتر الحلم.. كانت تتآمر أحياناً على المكان والزمان، إذ تتابع أحلامها وهي في الصف، لكن المعلمة لا تتركها تمارس هذه المتعة، بل تشجبها كلما ضبطتها حالمة، تقرّعها وتوبّخها.. إلى أن صارت، كلما أرادت أن تحلم، وهو أكثر شيء تحبه في الحياة، أن تتخيل وتعيش في أزمنة أخرى، وتعاشر أشخاصاً مختلفين، حتى حين تكون بمفردها، صارت صورة المعلمة، وصوتها الموبّخ، يحرمانها من لذة الحلم باسترخاء، حتى في غرفتها.

المدرسة كابوس، المعلمة بعبع، والدراسة ملل.. أف!

قالت لوالدها ذات صباح: «انظر إلى نفسك أبي، أنت رجل محبوب، ناجح، قوي، ذكي، محترم، وتحمل كثير من الصفات الإيجابية، رغم أنك لم تتعلم في المدارس، إذن ما أهمية المدرسة!».

إن حديثها اليومي هو محاولات لإقناع والديها للتوقف عن إرسالها إلى المدرسة.

كانت حياتها قبل الذهاب إلى المدرسة مختلفة. كانت رائعة،

سهلة، لم تكن تعرف آنذاك أنها فتاة، أو إنسانة.. كانت فراشة، نحلة، عصفوراً، تمضي معظم وقتها في البرية.. في المرج الأخضر.

تحنّ كثيراً إلى تلك الأيام. كانت ترافق النساء شغفهن بالحويش[١] إذ تخرج النسوة في مجموعات لقطف النباتات التي تنمو في البرية. هناك تعرفت إلى صبيحة، المتفننة في جلب الحويش، وبيعه، مصدرها للعيش وتربية أولادها اليتامى، في موسم الربيع. صبيحة التي تغني في كل صباح، وتشاركها سلطانة بالغناء، الأولى حتى تخرج لقطاف الحويش، والثانية حتى ترافقها.. إذ تصرخ سلطانة من الفرح كلما اكتشفت كف العروس، هندبة الجبل، دردیرة العتيقة، خمترية، قرّيمة العنزة، جلّيلة العصفورة، الحميضة[٢] صبيحة، الجارة الفقيرة، التي تعرفت إليها سلطانة في إحدى جولاتها في المرج، وأحبتها، لأنها أحضرت لها في اليوم التالي طبق الخبيزة مع البصل الأخضر، لتكتشف طعاماً لا تطهوه والدتها.. تغني مع سلطانة راجية الشمس:

يا شميسه اطلعي لي لانشر غسيلي

---

(١) كلمة شعبية، يُراد بها الطقس والأعشاب ذاتها، حيث تنمو في أماكن معينة، تذهب إليها النساء خاصة، فيجمعن هذه النباتات، وبعضها معروف وبكثرة في معظم البلاد العربية، ولخصوصية التسمية ودلالاتها في جو الرواية، آثرتُ تركها كما هي، بالعامية الحلبية، وربما الشامية.

(٢) بعض أسماء النباتات، منها ما يُطهى، ومنها ما يؤكل نيئاً كالسلطات، والحميضة أيضاً تدخل في حشوة بعض المعجنات كالسمبوسك، الطبق الشهير في مدينة حلب.

غسيلي بالمغاره.. نطت علي الفاره
والفاره هندي هندي والليله نامت عندي
حرقت لي الصينيه حمره وصفره ومجليه
اطلعت ع الاسطوح رماني الهوا
رحت ع الحكيم وصف لي الدوا
فستق بندق كعب الغزاله[٣]

لم تكن رجاءات صبيحة لطلوع الشمس من أجل نشر الغسيل، بل لقطف الحويش.

في آخر النهار، تعود صبيحة بقطافها.. تجلس في ساحة القرية وتبيع بضاعتها.. وتطهو ما يبقى منها، ما لم تتمكن من بيعه. تقلي البصلة اليابسة بالزيت، ثم ترمي الحويش المغسول والمنقّى والمفروم، تحركه مع الزيت والبصل، تضيف بعض الملح والبهار والفليفلة الحمراء المجففة.

عشقت سلطانة حياة المرج الأخضر، أو البريّة. تحكي لها صبيحة القصص، تعلّمها أسماء النباتات والورود.. حكت لها قصة الطير الأخضر.. وعلّمتها أغنيته «كوكو كوكو أنا الطير الأخضر، كوكو كوكو بمشي وبتمختر.. كوكو كوكو أمي دبحتني، وأبوي أكلني، وأختي الحنونة لمت عضامي وزرعتهم بالمرج الأخضر»[٤] كان الطائر الأخضر صبياً جميلاً، ذبحوه، وأكلوه، كما يحدث في

---

(٣) من شديات الأطفال، من الموروث الشعبي.

(٤) من الحكايا الشعبية.

قصص الأطفال الحمقاء، وحين دفنت أخته عظامه في المرج الأخضر، تحول إلى طائر أخضر، يأتي في كل صباح، ويغني تلك الأغنية.

ـ ٢

كما العادة، في النهاية خضعت سلطانة للواقع، لمشيئة الأهل، واتجهت إلى المدرسة.

في الطريق، في هذا الصباح، صادفت الصبايا، صديقاتها منذ أيام البرية، أيام الحكايات واللهو، اللعب، الخيال.. حين كانت فراشة، نحلة، عصفوراً، حصاناً، وردة، نجمة.. قبل أن تتحول إلى «تلميذة» محبوسة في الصف.

الفتيات الفقيرات لم يذهبن إلى المدرسة.. وحدها انفصلت عن هذه المجموعة، الفتيات اللواتي تحبهن أكثر من غيرهن، زهرة، سميرة، عائشة.

ـ لوين رايحات؟ سألت سلطانة.

ـ متل العادة، عالبرية.. وأنتِ.. سألت ثلاثتهن بصوت واحد.

ـ عالمدرسة. ردت سلطانة بقهر.

ـ يا حرام! قلن بشفقة.

ـ أف، شيء بيملل، ما بدي أروح عالمدرسة... بدي أروح معكن عالبرية.

ـ وأمك؟ سألت الصبايا الثلاث.

ـ برجع وقت الصرفة، كأني كنت بالمدرسة.

انطلقت الفتيات الأربع سعيدات، تتأبط إحداهن ذراع الأخرى.. قافزات، مغنّيات، كما في أيام الطفولة القديمة، اللاهية، حيث كن يمشين هكذا، متأبطات.

أمضت سلطانة نهارها مستعيدة الزمن المنصرم، الزمن الفردوسي.. قاطفة الورود، ضاحكة، لاهية كفراشة، كنحلة، كعصفورة.. راكضة تحت الشمس، في مساحات لا تحدها جدران.. حياة تعشقها ولا تملّ منها، بل تحلم بها، بالعيش الأزلي هنا، في هذه البريّة، وتحسد الأغنام والماعز والكلاب والقطط والعصافير والأشجار.. تحسد كل من يحيا في هذا المكان.

عندما انتبهت بغتة.. كانت الشمس قد غابت، وبدأ الليل بالهبوط.

كيف ستشرح لوالدتها؟ لقد تأخرت كثيراً.. تذكرت.. رائع، هذا هو الحل، تميمة!

تميمة، أم المرعى، أم المرج، أم البريّة. لا أحد يردّ لها طلباً. الكائن الوحيد الذي تمشي كلمته على الجميع، وعلى أبويها دون شك.

لكن هل ترضى تميمة التدخل في شأن كهذا؟ حين لا تذهب سلطانة إلى المدرسة، وتخدع والديها، أتساعدها تميمة؟ أتحميها تميمة من عقاب أبويها؟

ـ ٣

بعد ثلاثة صبيان، أنجبت مليكة بنتاً.

أحبّ شريف دوماً أن تنجب له زوجته ابنة، بل حلم بطفلة تملأ منزله بحضورها.. إذ آمن بأن البنت لطيفة وحنونة وتنشر الفرح والرعاية والنعومة أينما حلّت. وكان شريف، مثله مثل بقية رجال القرية، مؤمناً بأن البنت وحدها هي التي «تشيل كبرة أهلها»، أي تعتني بوالديها حين يكبران ويشيخان، لما عُرف عن تميّز البنات بطبعهن الحنون، الراعي، الدافئ، المعتني.. بينما عُرف الذكور بالقسوة والأنانية، واتّباع أهواء زوجاتهم، اللواتي ينفرن تلقائياً من أهل الزوج، على ذمة السيرة المتداولة، المألوفة، عن علاقة الكنّات والحموات.. لكنه في الوقت ذاته، كان يقلقه أن تلد له مليكة بنتاً، فتحوّل حياته إلى جحيم.

حاول أن يشرح لتميمة مشاعره المتناقضة، المختلطة. إنها تفهمه، كما تفهم الجميع. ومع هذا، فقد قاطعته دوماً، مكررة عبارات من قبيل: «لا تخلط الأشياء ببعضها.. دع الزمن للزمن.. اتكل على السماء.. لا تتوقع شيئاً.. لا يمكننا التدخّل في القدر.. اهدأ وثق في الحياة». كانت كلمات تميمة تخفف عنه، لكن لوقت قصير، ثم سرعان ما يعادوه الهم والقلق.

لم يكن اسم تميمة اعتباطياً، ولم يطلق عليها والداها ذلك الاسم.

لا أحد يعرف اسمها الأول، ذاك الذي تسمّت به إثر مجيئها إلى الحياة. بل تلقّت تميمة هذا الاسم لاحقاً، وبسبب عدة ظروف وأسباب، ناداها الأهالي بهذا الاسم. لأنهم آمنوا بقدراتها الخارقة، السحرية.

مقطع إجباري يقطع السرد ولاءً لتميمة

في اللحظة التي وُلدت فيها، في صباح ذلك الصيف، كانت تمطر بغزارة. لكن لم يربط أحد بين الحدثين، أو الحادثتين: الولادة والمطر. أكان منطقياً أن تمطر بغزارة في ذلك الصباح الصيفيّ؟

ذات يوم، كانت تناغي وحدها كما لو أنها تدندن أغنية خاصة بها، طفلة مستغرقة في عالم طفولتها، ناسية من حولها.. بغتة.. وقد رأى الجميع هذا، جميع من كان هناك، من أقارب وأباعد، إذ خرجت أفعى كبيرة من مغارة الدار، وُجدت بغتة أمام الجميع.. مرت بينهم دون أن تؤذي أحدا أو تقترب منه، متّجهة صوب الصغيرة التي تناغي.. دارت حولها عدة دورات.. ثم انسلت هاربة، مختفية كأنها قد تبخّرت في الهواء، أو أن الأرض انشقّت وابتلعتها.

عندما أتقنت الكلام، اكتشف كل من حولها جمال صوتها، وأثره السحري. حين تغني، كل شيء حولها، وكل من حولها، يكفّ عن الحركة، ويهدأ.

صادقت الكلاب الشرسة المسعورة. وكذلك أحبتها قطط القرية وخيلها.

في السابعة من عمرها، رافقت والدها في زيارة لقرية نائية.

كانت تلعب مع صبي من أولاد تلك العائلة، في تلك القرية النائية، قرب بئر الماء الجافة.. حين شعرت بغتة بالعطش وأرادت أن تشرب منها.

سخر منها الصبي:

ـ ولكن هذه البئر ناشفة منذ أكثر من خمسين سنة.

ـ أغلق فمك. قالت له.

أدلت الصغيرة الدلو في البئر، ولمّا سحبته، كان الماء يتسرب من حوافه المثقوبة، إلا أنها شربت بمتعة وارتوت.

نادى الصبي والدته مندهشاً.. وراحت المرأة تكرر مع ولدها:

ـ هذه معجزة.. إنها معجزة!

مع مرور الزمن، تكررت وتعددت الإشارات. وكل واحدة منها تخبر قصة مختلفة، مفادها أن لهذه الصبية طاقات خارقة، سحرية، عجائبية.

أقسمت أمها ذات يوم، بأنها رأت شبحاً يغادر مغارة أخيها، حين نزلت ابنتها لتلعب هناك.. وكانت الصبية تحب الدخول في الأمكنة الغامضة، المظلمة، المجهولة، كالمغارات مثلاً.

خالها أيضاً، صاحب بيت المغارة التي خرج منها الشبح، أكّد أن الفتاة طردت روحاً سيئة، شريرة، كانت تقطن مغارة الدار منذ سنوات، بل ومنذ أجيال متراكمة. خالها هذا، كان أول من أطلق عليها لقب «حجابي الحامي تميمة».

تكررت الإشارات.

حتى الحكايات البسيطة تحولت إلى براهين قوية. وهكذا، وبمرور

الوقت، حصلت على اسمها: «تميمة». أصبح الجميع مؤمناً بقدراتها، كأنها حجاب أو تميمة سحرية. كل الذين لديهم مصاعب ومشاكل، جاؤوا إليها حالمين بالحلول، عائدين منها بأثر ما، خصلة شعر، خيط من ثوب، أي شيء منها، يحفظونه معهم، ليقيهم، ليحميهم، ليحفظهم.. أي شيء من رائحتها، هو تميمة، حجاب، لحامله.

الكلام عن تميمة لا ينتهي، بما أن هذا المقطع قد قطع السرد، فعلينا الاقتناع بالتوقف، وإلا لروينا قصصاً طويلة عن تميمة، ونسينا سلطانة معلقة، خائفة من العقاب، حائرة.. أليس علينا أن نضحّي قليلاً بسيرة تميمة، لنعود إلى حكايتنا المركزية هنا، حكاية سلطانة؟

نعود إذن إلى الصبية الصغيرة ذات العينين الخضراوين.

حسناً، بعد ثلاثة صبيان، أنجبت مليكة بنتاً.

أصيب زوجها بالهلع، بالذعر، بالتشتت.. شعر بأنه أكثر من أي وقت آخر، من أي شخص آخر، بحاجة إلى تميمة. ما من وسيلة لتهدئة روعه سواها: تميمة.

حين خرجت تميمة من غرفة مليكة، وقد رأت وجه الصغيرة مشعّاً بضوء غامض، وجدت شريف متجمداً أمام الباب، مدركاً بأن زوجته وضعت فتاة. متمتماً إلى السماء، بألّا تحمل الطفلة أمارات الشر الذي يخشى وقوعه.

حطت تميمة يدها برفق على كتفه:

ـ ابني شريف! وأخيراً، البنت التي تحلم بها.

دخل شريف الغرفة مقترباً من الطفلة. غرقت عيناه في عيني الصغيرة. نظر بهلع إلى عينيّ تميمة. ثم دقق النظر في عينيّ الصغيرة، وامتقع لونه، كأنه تحول إلى شبح، أو كأن دمه جف في جسمه.

ـ ما بك ولدي؟ سألته تميمة.

ـ رأيتِ عينيها؟ سأل شريف بصوت متحشرج مخنوق.

ـ نعم، جميلتان جداً، خضراوان.

ـ خضراوان!

ـ إذن؟

ـ ما من عيون خضراء في عائلتنا. ليس في عائلتنا سوى العيون السوداء والزرقاء. أبداً، لم يولد أحد في عائلتنا بعيون خضراء. ابتلع ريقه الجاف وهو ينهي عبارته.

ـ وما المشكلة؟ هذا يحدث، كف عن القلق.

لم تكن مليكة قد أبصرت بعد وجه الطفلة، توسلت إليهما بذعر:

ـ يا إلهي، لا تقولا بأن طفلتي تحمل عينين خضراوين!

وضعت تميمة يدها برفق على جبين مليكة لتهدئتها.

نظر شريف ومليكة إلى تميمة خائفين، وبغتة، انفجرت مليكة بالبكاء.

ـ يا إلهي، إنه لون عيني جدتك!

سرعان ما شعرت بالندم والضيق، لأنها ذكرت الجدة التي ينبغي تجاهل ذكرها، حتى أن سيرتها تجلب النحس. تأكدت مشاعر

الشؤم لديها، هي التي جهدت، كزوجها، ألّا يأتوا على ذكر الجدة ذات العينين الخضراوين.

ـ ٤

لم يتمكن شريف من النوم في تلك الليلة، عينان خضراوان في عائلته! هذا لم يحدث من قبل، عدا عيني جدته.

في هذه اللحظة، يشعر بأنه منقسم، أنه اثنان لا واحد. أحدهما يحاول تهدئة الآخر، بينما الآخر يقاوم، ويرفض الإذعان للهدوء الكاذب.

منفصل بين حالتين، بين شخصين، وبعيداً عن مسرحة الانفعال والقلق، فإن هذا الحوار دار بين الشخصين الذين احتلا سريره معاً، ذاتيه أو أناتيه «الأنا والأنا»:

ـ وما الذي يقلقك يا شريف؟

ـ لا شيء.

ـ أتظن بأنني لا أفهمك؟ أتخفي عني قلقك؟ منذ ساعات وأنت تدور حول نفسك.

ـ حسناً.. نعم، أنا قلق.

ـ ممّ؟

ـ أتتغابى؟ ألم ترَ عيني الطفلة؟

ـ هذا غير معقول.. فعلاً أنت تبالغ.

ـ أنا لا أبالغ، لا تحاول تسطيح المشكلة، أنت شخص لا مبالٍ.. سترى المصائب التي ستحل علينا.

ـ أف، كل هذا بسبب خرافات؟

ـ توقف عن الظهور بمظهر شخص لا يتحمل المسؤولية، الأمر جديّ، نعم أصدق، أصدق وأخاف.

ـ حسناً، لنفترض.. لا بد من حل ما.. حاول أن تسترخي الآن، تكاد تموت من التعب، نم الآن، ولا بد أن نعثر غداً على فكرة أو حل ما.

ـ تريدني أن أنام فقط معتقداً بأنني سأنهض في الصباح في حالة مختلفة، ناسياً قلقي؟ أنت مخطئ، ثمة مصيبة حقيقية.. كيف أنام؟

ـ أنت تتعبني.. ألم تحلم دوماً بأن تنجب فتاة؟ ألم تدع إلى السماء في كل ولادة، حتى تضع مليكة ابنة.

ـ أجل، أحب أن يكون لي ابنة.. عندي ثلاثة صبيان، وانتظرت مجيء البنت بكثير من الصبر والأمل، لكني دعوت ربي ألا يبلوني بابنة ذات عينين خضراوين.

ـ صدفة، ليست أكثر من صدفة. هذه «درويشة» التي انتظرتها. ألم تحلم ببنت تحمل اسم جدتك؟ هي ذي أمامك.. إنها البنت التي ستحمل اسم جدتك.

ـ نعم.

يخرج من الغرفة، يتنقّل في أرجاء المنزل، لا يعرف أين تقوده قدماه، ولا يفكر بهذا. مغتمّ، مطرق في التفكير «ولكن ليس بعينين خضراوين... لا يمكن أن تتكرر القصة» يتابع تجواله من غرفة لأخرى، يدخل المطبخ، الحمام.. «حسنا، لن أسمّيها درويشة، ألا تذكر يا شريف؟ حين هجّت الجدة من القرية، كان ذلك بسبب اسمها. لا، درويشة لا يناسب ابنتي كاسم، كيف سهوت عن هذا!».

ـ لماذا غيّرت رأيك الآن؟ لقد قررت هذا منذ وقت بعيد. كم تناقشت مع والدتك آنذاك. اتفقتما معاً على أن تدعو ابنتك، إن رزقك الله بابنة، باسم جدتك، هذا نذر، أنسيت؟ قالت أمك إن تسمية ابنتك باسم جدتك يساعد على تجنب المصير ذاته ويمحو سوء الطالع.

ـ نعم، ولكن ليس مع ابنة بعينين خضراوين.. يمكن الاسم تغيير المصير. جدتي كانت غاضبة دوماً وغير راضية عن اسمها. كان الجميع يشعرون بالشفقة والعطف نحوها، بسبب اسمها، وكان هذا يجرح كبرياءها. لا أريد مصيراً مشابهاً لابنتي.

ـ إذن، كيف ستدعوها؟

فكر شريف طويلاً، ثم صرخ بصوت عالٍ، كمن عثر على ضالته:

ـ سلطانة.. سأدعوها سلطانة.. سلطانة اسم ملوكي، وسترث معانيه، وتتلبّس دلالاته.

ـ ٥

وافقت تميمة، على طلب سلطانة للتوسط لها عند أهلها.

في العادة، لا تتدخل تميمة بأمور كهذه، لا تشغل نفسها بأمور الآخرين، بل تحيا في عزلتها عن الجميع. لأنها تعرف بأن تدخلها قد يبدّل مصائر الآخرين، وهذا ليس من حقّها، أن تستغلّ معرفتها فتتدخّل في تغيير القدر. إلا أنها لم ترفض طلب سلطانة حين جاءتها طالبة العون. حتى ولو لم تدرك الصبية المكانة التي تحظى بها لدى تميمة.

عاد شريف باكراً إلى المنزل بعد ظهيرة هذا اليوم. كانت مليكة جالسة وسط أرض الدار، واضعة أمامها طست الغسيل الكبير، الذي اعتادت استعماله لغسل الثياب.

ـ ألم تنتهِ من الغسيل بعد؟

ما أن سمعت عبارته وكانت مستغرقة غير منتبهة لدخوله، حتى سقط لوح الصابون من بين يديها، فتسمّرت في مكانها.

ـ ألم تسمعيني؟

ـ بلى بلى.

أجابته وكأنها نائمة.

ـ ما بك؟

ـ لا شيء.

عصرت بغضب القميص الأسود الذي كانت تمسك به، متهرّبة من النظر في عيني زوجها.

ـ ما بك؟ لست على ما يرام!

ـ كلا، لا شيء.

أجابته منهمكة بالغسيل، دون أن تنظر إليه.

ـ انظري إليّ مليكة.. لماذا تخفين عينيك عني؟

ـ أنا منشغلة بالغسيل، ألا ترى كم هو متراكم أمامي!

أجابته دون أن تنظر إليه.

شعر بأن ثمة أمراً ما، وهي تتهرب من النظر إليه، لأنه إن نظر في عينيها، سيكتشف قلقها.

أدخل يده في جيب بنطاله وأخرج علبة الكبريت وسحب لفافة تبغ من علبة السجائر. أشعل السيجارة، ثم قال ببرود مفتعل:

ـ أين ابنتك؟

ـ من؟ سلطانة؟

ـ وهل لديكِ أكثر من ابنة؟

ـ من فضلك لا تسخر مني، تعرف بأنني لا أحب هذه اللهجة، هذا يغضبني.

حاولت التملّص من نظرته الثاقبة، المشكّكة، الذكية.

ـ حسناً، أين ابنتك؟

ـ لماذا تكرر الكلمة ذاتها، ابنتك، ابنتك.. كما لو أنها فقط ابنتي، أو ليست ابنتك أنت أيضاً؟

أدرك شريف بأنها تراوغ متهربة، مماطلة.

ـ حسناً مليكة، أين ابنتي.. أين سلطانة؟

تأففت مليكة وهي تحك بقعة عن البنطال، وكما لو أنها تتحدث إلى نفسها، متجاهلة زوجها:

ـ اللعنة، ما هذه البقعة.. أف، كيف تُزال بقع الشحم؟

ـ نائمة ربما؟ قيلولتها المفضّلة بعد المدرسة؟

أصرّ شريف.

وحين رأى أن زوجته مندمجة في الغسيل، متأكداً أنها تفتعل تركيزها على بقعة الشحم.. قال وهو يطفئ سيجارته في تربة علبة الريحان:

ـ حسناً، سأصعد إلى غرفتها.

قبل أن يتابع خطوته الأولى مستديراً نحو الباب الداخلي للمنزل، جاءه صوتها من خلفه:

ـ ليست هنا، لم تعد بعد!

كأن صاعقة مسته.. قال بصوت خافت، وكأنه يوشوش نفسه غير

مصدق:

ـ هه؟

بغتة، ركل الطست مبعثراً الغسيل والماء والصابون في ساحة الدار.

توسلت إليه بخوف:

ـ اهدأ أرجوك، ستصل على الفور.

ـ إنها تقترب من الخامسة، وهي تخرج من المدرسة في الثانية عشرة. خمس ساعات وتقولين لي اهدأ. خمس ساعات ولم تحركي ساكناً، جالسة تغسلين الملابس وكأن الأمر عادي، وكأنها تتأخر في كل يوم... وكأن...

ـ اهدأ أرجوك.. قد تكون مع صديقاتها في المدرسة.

ـ منذ متى؟ منذ متى تذهب وتتأخر ولا نعرف بهذا..

كالثور الهائج أشعل سيجارة أخرى وراح يمشي غاضباً جيئةً وذهاباً، متمتماً بكلمات لا معنى لها.

لم تغيّر مليكة من جلستها، لم تتحرك للمّ الملابس المبعثرة، ولا لتنشيف الماء.. تسمّرت في مكانها تصلي بصوت مخنوق، راجية السماء أن تعود ابنتها سالمة كما خرجت في الصباح.

كاد يغمى عليها من القلق، وكاد ينفجر من الغضب، حين سُمع صوتها:

ـ أبي، أمي، أنا هنا.

حين استدار كلاهما نحو الصوت، رأياهما تدخلان البوابة معاً: سلطانة مصحوبة بتميمة.

٦ -

كان ذلك بمثابة العيد. أخرجت مليكة أطباقاً وفناجين تحتفظ بها لمناسبة كبيرة، احتفاءً بقدوم تميمة.

لم يوفر شريف ومليكة أي تفصيل للاحتفاء بتميمة.

منذ وقت طويل، لم يشعر شريف بهذه السعادة. سعادته بوجود تميمة، تعادل لحظات السعادة النادرة التي كان يشعر بها مع جدته، أف، من الأفضل نسيان هذا الآن.

لو علم أهالي القرية بمقدم تميمة! لا بد أنها وصلت بسرّية كبيرة، وإلا لاحتفى بها الجميع، وجاؤوا طوابير إلى منزل شريف. لأن خروجها من البرية نادر، فهي تمكث هناك، دون أن تتحرك، لا ترى أحدا ولا يراها أحد.

بعدما تناولوا بعض الحلوى، أشعل شريف سيجارة وناولها لتميمة.

لم ترغب تميمة في التدخل في شؤون شريف العائلية. ولكن وبسبب استبصارها ومعرفتها بالغد، فقد سمحت لنفسها استثنائياً بالتدخل، لأن الأمر قد يمس سلامة القرية كلها، وليس شريف وعائلته فحسب.

حاولت تميمة حماية القرية. إلا أنها لا تستطيع أن تكون مباشرة في كلامها، حتى لا تثير ذعر شريف. سألته:

ـ لا أفهم سبب إصرارك على إرسال الصبية إلى المدرسة؟

يكره شريف إلى درجة كبيرة، التحدث في هذا الأمر، أو حتى التصريح عن مخاوفه بصوت مرتفع. ثمة مشاعر في أعماق المرء، عليه أن يدفنها بعمق، لأن من الصعب شرحها، كما أن من المخيف المجاهرة بها، وكأننا نستقدمها. إلا أن مكانة تميمة الكبيرة، أجبرته على الرد:

ـ منذ وقت طويل، تناقشت مع أمي حول هذا.. وفي نهاية المطاف، توصلنا إلى أن المدرسة قد تنقذنا من أيام صعبة.

توقف شريف عن الكلام. لم تسعفه المفردات.

ترددت تميمة في الإجابة، إلا أن صورة المستقبل المخيفة التي رأتها مطبوعة أمامها، دفعتها إلى القول:

ـ وماذا إن تمّ هذا بسبب المدرسة؟

ـ ماذا؟

سأل شريف مندهشاً.

الصورة واضحة أمام تميمة، كما لو أنها تحدث الآن. سلطانة، برفقة إبراهيم.. معاً، في طريق المدرسة.. حيث تبدأ الحكاية.

بما أنها لا تستطيع التصريح عما تراه عن الزمن القادم، اكتفت بالقول:

ـ أتفهّمُ خوفك، وأقاسمك إياه. لهذا عليك المحافظة على ابنتك في المنزل.

ـ لا، اعذريني. إن جلستْ هنا، دون شيء تفعله، فالفراغ ذاته يولد الأفكار الشريرة. الشر يأتي من العزلة والفراغ. أريدها أن تخرج، أن تملأ وقتها بعوالم مختلفة، أن تتعلّم، أن تفكّر، أن تتساءل، أريد لذهنها أن يتفتح، ويخرج من حدوده الضيقة. العلم مهم يا أماه، العلم يمنحها المعرفة، والمعرفة بصيرة ونور. العلم يفتح طاقاتها الداخلية، يفتح أمامها أبواباً جديدة، ينقذها من مصير ضيق محدد. هكذا فقط أستطيع حمايتها، لا بعزلها في المنزل كقطة بيتيّة، أو كعصفور في قفص، بل عبر تعليمها ومنحها صوراً جديدة واحتمالات مختلفة.

ـ أو تعتقد بأن جدتك كانت بلهاء، وكانت تنقصها المعرفة والبصيرة؟

ـ لا، بالطبع لا، ولكن ظروف حياتها كانت هكذا، لا أريد لابنتي عيشاً مماثلاً، حين أرسلها إلى المدرسة، فإنني أمنحها فرصةً لتعلم أشياء مختلفة، أقدم لها مستقبلاً مختلفاً.

ـ كل هذا لا علاقة له بموضوعنا الأساسي، القدر، المكتوب، علينا تجنبه.

ـ كيف؟

أخذت تميمة نفَساً عميقاً من سيجارتها، وبنظرات تائهة، غير مركّزة تماماً عليه، كما لو أنها تتحدث إلى شخص آخر تراه وحدها، قالت:

ـ حين ينصحك شخص ذو حكمة وخبرة، اسمعه دون جدال، حتى وإن لم تفهم أو تقتنع، هي جملة واحدة أقولها لك: لا ترسل ابنتك إلى المدرسة.

ارتجف شريف، كما لو أنه أبصر وجهاً آخر يركب، يحل محل وجه تميمة. كما لو أنه وجه أمه، أو وجه جدته. شعر بأنها ليست تميمة من لفظت تلك الجملة، بهذا الوضوح «لا ترسل ابنتك إلى المدرسة»، بل شخص آخر.

منذ هذا الحوار، لم يغمض لشريف جفن. كان مهموماً، ومقسّماً بين حواره مع أمه، و حواره مع تميمة.

ـ ٧

لكن، ما هو موقف حكيمة.. والدة شريف؟

في اليوم ذاته، وبعد انصراف تميمة، استلقى شريف على أريكة الصالة، مشوش الذهن، قلقاً كعادته، لا يعرف ما يفعل.. غفا قليلاً، ورآها.. أمه التي كعادتها تأتيه مرتدية ثوباً طويلاً أبيض، ويتذكّر على الفور، ما أن يلمحها قادمة بذلك الثوب، ما شرحته له في أول حلم زارته فيه، لابسة هذا الأبيض، أنه من أمارات الجنة.

وضعت يدها على جبينه بحنان يعرفه ويألفه، وبصوتها الدافئ المُطَمْئِن سألته:

ـ لماذا تثقل على روحك هكذا.. اطمئن، أنا هنا، جوارك، لا أتركك أبداً.

ـ ولكنكِ متِّ!

ـ نعم متُّ، وهل تظن أن الموت يمنعنا من اللقاء؟ ألم أزرك من

قبل؟ ألم نتحدث بعد موتي؟ أتظن أننا نموت كليّاً! إن ما يذهب إلى هناك، إلى داخل الحفرة، هو الجسد فقط، اللحم والعظم والدم، أما الروح، فهي حرة، وباقية، لا تفارق الذين تحبهم، كلما احتجت لي وجدتني معك، لا يمكنني تركك أبداً يا بني. انظر إلي، أتشك بوجودي هنا.. أليست يدي هذه التي تمرّ على رأسك، أليست أصابعي التي تتخلل خصلات شعرك.. ألا تشعر بأنفاسي قربك. أتظن بأن الأمهات يستطعن بسهولة التخلي عن أبنائهن؟ أو يحول الموت بيننا؟

ـ أمي.. نعم، لقد وقفتِ دوماً بجانبي، أعنتِني وأضأتِ لي الطريق، أنا متعب يا أماه، ماذا أفعل؟

ـ لا تقلق، هو دوماً موضوع سلطانة؟

هز شريف رأسه مرهقاً.

ـ ولدي.. أنا أتحرك في قلبك.. أنا معك، اسمع ما يقوله قلبك، أصغِ له، فهو قولي. هو كلامي أهمس به في أذنك.. يأتيك من هنا «تشير إلى قلبه»، يدلّكَ.. أنا وأنت معاً في هذا القلب، أسكنك، وأنير روحك.

ـ أُرسلها إلى المدرسة؟

ـ ألم نحسم هذا النقاش من قبل؟

ـ نعم، إلا أن تميمة...

ـ توقف.. تميمة انتهت. لم تعد تلك الحكيمة الناضجة الرائية.. إنها امرأة خَرِفة.

رغم ثقته الكبيرة وإيمانه بأمه، لا يمكن لشريف تجاهل موقفها المغرض من تميمة. كان الصراع دائماً بين المرأتين. كانتا صديقتين حميمتين. إلا أنهما أيضاً، كانتا تتنازعان على الدوام.

لم تكن حكيمة تؤمن بتميمة، ولا بقدراتها، رغم الحب والصداقة اللذين تكنهما لها. ثمة احترام بينهما، تقدير، ولكن دون قناعة أو إيمان.

- ٨

أقسم لكم، منذ ثلاث سنوات ماتت هذه الأشجار وجفت تماماً.

ما أن حملتُ بسلطانة، ومنذ اليوم الأول لحملي، حتى برعمت هذه الأشجار. وفي غضون تسعة أشهر، تحولت الحديقة إلى جنة.

في اللحظة التي ولدت فيها سلطانة، وما أن هبطت من رحمي ومدت رأسها نحو الخارج، حتى نمت أشجار جديدة من تلقائها، لم يزرع أحد شتلاتها ولم يروِها أحد حتى. كما لو أن التربة في الحديقة أو في أرض الدار احتفت بولادة سلطانة. كان الخَضَار يملأ المنزل.

أرغب بوصف غرفة الولادة إبان ولادتي لسلطانة:

آلام المخاض تمزق بطني. أسراب من العصافير، الفراشات، الحمائم البيضاء، تدور حولي، في الغرفة.

مندهشة، متألمة معاً. حائرة بين وجع المخاض وفرح الدهشة. ما كل هذه المخلوقات الطائرة المحلقة في غرفتي!

إنه الربيع، الثلاثون من شهر آذار تحديداً. الطقس ينوس بين البرودة الطازجة والحرارة الخفيفة. آلام المخاض تجتاحني. انفجرت مياه الرأس. أشعر بألم شديد، تظهر الشمس بغتة من نافذة الغرفة، تغمر المكان، في اللحظة ذاتها التي يظهر فيها رأس سلطانة. كما لو أن ثمة خيطاً سرياً لا مرئياً، بين رأس الطفلة والشمس، ما إن ظهر رأس الصغيرة، حتى انجذبت الشمس نحو الغرفة، وغمرت المشهد بأكمله بأشعتها.. بدت الشمس ضيفة الغرفة، الضيفة المطلقة، حيث لم أرَ سوى الشمس، مندسّة في المكان، متسللة بين ساقي، متجهة صوب الرأس الذي شعرت به، ولم أرَه بعد.

كان الطقس يتقلّب بين البرودة والدفء، في ذلك النهار من آخر شهر آذار، وُلدتْ سلطانة.

في ذلك النهار الربيعي، امتلأت الحديقة بالورود، ورود غريبة متنوعة، ثمة الكثير منها مما لا أعرف أنواعها أو أسماءها، نمَتْ من تلقاء نفسها. صدقوني إن أخذت أمرَ وصفها على محمل الجد، فإنني سأحتاج إلى قواميس ومراجع للتحدث عن أصناف هذه الورود العجيبة، والتي أشك في أن ثمة مرجعية لبعضها. بعض الأنواع التي عرفتها هي: ورد جوري ـ فل ـ ياسمين بحري ـ زنبق ـ فم السمكة ـ خزامى ـ شقائق النعمان ـ مارغريت ـ داليلة، نرجس ـ قرنفل ـ داليا ـ المنتور... بين كل هذه الورود السحرية، ثمة شجرة زيزفون!

كانت الزيزفونة في الحديقة سابقاً، منذ سنوات. لكنها كانت ميتة. مجرد جذع خشبي مغروس في التربة. رفض شريف دوماً اقتلاعها. تعاملتُ معها دوما وكأنها غير موجودة. إلا أن شريف كان يسقيها، كغيرها، كلما سقى الحديقة.

لهذه الزيزفونة قصة صغيرة: زوجة زوجي، أي حماتي، درويشة، زرعتها حين انتقلت للعيش في هذا المنزل، إثر زواجها هنا. لم يُرزق حمواي سوى بشريف. ولم يبقَ من هذه العائلة اليوم سوى زوجي وأبنائنا الثلاثة وابنتنا. كنت أقول أن لهذه الزيزفونة قصة، وكأنني نسيت روايتها. أنا هكذا دوماً، أبدأ في التحدث في موضوع ما، ثم أجدني أتحدث في موضوع آخر، ثم أنسى عما كنت أريد التحدث، ولماذا أتحدث في الموضوع الجديد، أف.. لا تبالوا بهذا، لنعد قبل أن أنسى إلى قصة الزيزفونة.

حين بدأت سلطانة بالمشي، وفي أولى خطواتها، كنت معها في الحديقة.. كانت تلعب جالسة على الأرض، وبغتة نهضت متكئة على كرسيها الصغير، وخطت.. خطوة أولى، ثانية، في الثالثة وصلت قرب جذع شجرة الزيزفون الناشفة، ونزلت هناك بيديها أولاً، ثم جلست على ركبتيها.. داعبت بيديها جذع الشجرة الميت، كما كنت أصفه، و راحت تلهو به وكأنها اكتشفت لعبة جديدة راقت لها. بغتة، نعم بغتة، وكم أستعمل هذه الكلمة، مباغتة مما يقع أمامي من تصرفات ابنتي.. أقسم لكم، برعمت شجرة الزيزفون!

منذ ذلك اليوم، صرت أدعوها بذات اليد الخضراء.. أينما كانت سلطانة تدس يدها، تنمو الورود، وتزدهر بالحياة.. لم تقاوم نبتة يد سلطانة، كل ما تمسه من نبات ميت، يخضرّ ويبرعم.

ـ ٩

وهكذا تتابعت الأمور. والدا سلطانة يصرّان على إرسالها إلى المدرسة، أملاً في تغيير مصيرها، واثقين من قدرة العلم والمعرفة والثقافة.

من جهتها، لم يكن لدى سلطانة ذلك الإيمان بالعلم. لم تحب المدرسة أبداً. بل شعرت بالغيرة والحسد من حرية صديقاتها وتحررهن من جدران المدرسة، ومن اليقظة المبكرة للدخول في صفوف مغلقة.. تحسدهن على تمتعهن بالشمس والخَضار المطلق، هي عاشقة الخَضار والخضرة.

حسناً، استمرت الأمور على ذلك النحو، الأبوان يصران على إرسال الصبية إلى المدرسة، وهي تحاول التملص يومياً، دون ملل، من ذلك الطريق، الطريق إلى المدرسة.

بغتة.. ذات يوم.. انتبه الأبوان إلى أن ابنتهما صارت مولعة بالمدرسة.. ما الذي تغيّر؟

توقفت عن التأفف والتذمر، وواظبت على حضور جميع الدروس. تستيقظ وحدها، سعيدة منتشية. تهرع إلى المدرسة، محاولة ألا تفوّت أيّاً من الحصص أو تتأخر ولو دقيقة.

صارت مهتمة بجميع المواد، مغرمة بالأدب والشعر خاصة، منكبّة على كتابة وظائفها، ومتقدمة المنهاج، بدرس واحد على الأقل، تحاول تعلمه بمفردها، قبل أن تشرحه المعلمة.

ترى ما الذي حصل؟

مزاجها عالٍ.. مرح، صاخب.. من يذكر تلك الصبية التي تستيقظ كل صباح متبرمة! إنها الآن تجهّز فطورها وحدها، تدندن ألحاناً مبهجة.. تستمع إلى الموسيقا وهي تعدّ حقيبتها المدرسية. خيرٌ إذن؟

أصبحت بغتة صبية سعيدة، متيقظة لكل ما حولها، نهمة للمعرفة، للتعلم.

أقلق هذا التغيير المباغت والديها قليلاً، راح كل منهما يقنع نفسه، والآخر، بأسباب هذا التغيير.

فسرت الأم هذا التغيير، بأنه نتيجة لتقلبات المراهقة. أما الأب فقد ظن أن بذور التعلم البطيء، عبر طيلة تلك السنوات، ورغم رفض سلطانة لها، قد نضجت الآن، وهيأتها للتعلم، فأكسبتها مزاجاً جديداً، منفتحاً على العالم.

إلا أنه، في حقيقة الأمر، لم تكن والدتها على حق، ولا والدها أيضاً. لم يتكهّن أحدهما سبب التغيير الذي أصاب ابنتهما. السبب الوحيد والعميق لذلك الانقلاب في سلوكها ومزاجها، كان الحب!

ـ ١٠

لماذا سُمي هذا الفصل بالأصفر؟

جميع شخوص هذه الرواية يشعرون بالخوف. الخوف الذي يمتقع بسببه لون الوجه. يهرب منه الدم الأحمر.. يتحول لون الوجه إلى ما يشبه الشبح. الخوف الذي يطيّر الدم، يجمّده، يلوّنه ربما، فيتحول إلى أصفر.

الجميع خائف، عداها.. سلطانة.

اعتاد شريف ومليكة العيش مع هذا الخوف، وكأنه مسجل في

صفحة القدر الخاصة بكل منهما. يعيشان، خاصة منذ ولادة سلطانة، في قلب هذا الخوف الأصفر.

كانت تميمة تشعر بالخوف، وإن على طريقتها. إلا أنها، رغم هذا، تستطيع التحكم في خوفها، بحيث لا تبدو عليها أمارات الخوف. على طريقتها أيضاً، تحاول حماية سلطانة، والقرية، من كارثة قد تحلّ عليها، وتبقى عالقة فيها لسنوات، يدفع جميع الأهالي ثمن هذا العقاب، أو الكارثة، أو اللعنة.

أما هي، سلطانة، فقد وُلدت داخل الخوف والفزع والهلع.. بل وُجدت كل هذه الحالات قبل ولادتها. ولو كان لها ذاكرة قبل التكوّن حتى في رحم أمها، لسردت قصص الخوف التي ترتبط بميلاد فتاة، أنثى، في هذه العائلة.

أحيطت بالخوف تلقائياً إثر مجيئها إلى العالم. وجدت نفسها محشورة في عوالم وتفاصيل الحماية، حجابات، سحر، رُقى..

كما ذاعت صورة الجدة المنهمكة بحياكة الصوف للوليد المنتظر، كانت تميمة منهمكة بإعداد الرقى والحجابات.. أمضت أياماً طويلة منخرطة في وصفاتها السحرية، في كتبها، مع شركائها السفليين والعلويين.. كل هذا لتجنب وقوع الكارثة.

كلما عاد الرعيان من البرية إلى القرية، دست تميمة في جيب أحدهم حجاباً جديداً أرسلته إلى مليكة، لتدسّه في ثوب الصغيرة، تحت مخدتها، في فراشها، تحت أغطية سريرها.. كانت الطفلة ترى هذه القطع المثلثة الشكل من القماش، ملونة في كل مرة بقماش ذي لون مختلف، في كل أنحاء غرفتها، داخل خزانة ملابسها، تحت فرشة سريرها، تحت المخدة، في ثنايا قمصانها الداخلية..

كانت لها غرفتها الخاصة. غرفة لها فقط.. وحدها.. تنام وحدها، بينما ينام إخوتها الثلاثة معاً، في غرفة أخرى.

كم تكره تلك الرائحة، رائحة البخور، عيدان تمقتها الصبية، تشعلها والدتها، لطرد الأرواح الشريرة. لم تحتمل سلطانة احتشاد غرفتها بهذه الأغراض، كل هذه الأشياء المعلّقة، المتدلية هنا وهنا في أرجاء غرفتها، المدسوسة في الزوايا. تفاصيل هائلة من مبطلات الحسد والإصابة بالعين.. كم شعرت بغرابة وجود كل هذه الأحجبة والطلاسم حولها كيفما تحركت، وكأنها تعيش داخل عالم صغير مغلق محاط بكل تلك القطع الواقية من الأذى والضرر.

في ذلك النهار، في بداية الربيع، كان الطقس رائعاً، إلى درجة أن الجميع تقريباً خرج للاستمتاع بالشمس. من الحماقة ألّا تنتفع سلطانة من ذلك الطقس، ألّا تهرب من المدرسة، وتترك الحصة الأخيرة، للّحاق بصديقاتها في البرية. وهذا ما فعلته.

زهرة، سميرة، عائشة، جلست ثلاثتهن تحت وسط البرية، محاطات بزهر الأقحوان، شقائق النعمان، وورود صفراء وزرقاء وبيضاء.. وقد استطال العشب الأخضر، واشتدّ لمعانه تحت ضوء الشمس. بسطت الصبايا البساط الصوفي الملوّن الذي حاكته جدة زهرة، والذي استعملت فيه عدة ألوان، في كل صف لون.. صفوف متناسقة من الألوان. شكّل استرخاء تلك الألوان، ألوان البساط الصوفي، على البساط العشبي، لوحة باهرة من الجمال. لوحة حوت الكثير من الألوان المبهجة، المبسطة، المفرحة..

حين وصلت سلطانة، شهقت من المتعة، متعة البصر المذهلة للروح

والعقل والعين.. لو أنها رسامة، لأبدعت أجمل لوحة في العالم، ولسمتها دون شك: بساط الربيع.. لكنها، للأسف، فكّرت وهي تقترب من البساط الصوفي، هي ليست رسامة!

في هذه البرية.. في هذا الربيع.. على هذا العشب.. تحت ضوء هذه الشمس.. استرخى بساط ملون بالبرتقالي، الأحمر، البنفسجي، الأبيض، وتمددت فوقه أطباق حوّت كل ما تشتهيه العين والمعدة. نعم، تقول أم سلطانة وهي ترتب المائدة مطولاً: العين تأكل قبل البطن.. صفّت الصبايا أطباق التبولة حيث تسترخي أوراق الخس الخضراء على أطراف الطبق، الجبنة البيضاء المقطعة، الخيار المقطّع، قطع البندورة، الباذنجان المشوي، شرائح الخبز، النعنع الأخضر، الرشاد، البقلة، البقدونس... وجلست ثلاثتهن يزدن بهجة المشهد. ثلاث فتيات مشرقات كشموس أخرى، بملابس ربيعية هفهافة. أثواب رقيقة تتطاير مع هبّات النسيم، ثلاثة أثواب بألوان الربيع: السماوي، الأخضر، الزهري. حملقت سلطانة من الدهشة والفرح، وهي تدخل فردوسها. خلعت حذاؤها وطوّحت به لتذهب كل فردة في ناحية فوق البساط العشبي، وولجت الفردوس. الفردوس الذي عنى لها ثلاث مفردات: البرية، الشمس، الخُضرة. تربعت الصبية الرابعة فوق البساط الملون، مادة يدها إلى بندورة ناضجة، التهمتها بفرح، وسال عصيرها على ملابسها، ضحكت غير مبالية بالأحمر يلوث ثوب المدرسة، منخرطة في الضحك والطعام والاستلقاء تحت أشعة الشمس، متلذذة بسماع قصص الصبايا، وتبادل الحكايات ذات النكهة الخاصة: حكايات البنات.

بغتة.. لم يتخيل أحد ما حصل..

بغتة.. لا يمكن لأي مصور للمشهد، ألّا يقول بأنها بغتة رائعة، بغتة مباغتة، بغتة هي أكثر من المباغتة، بغتة مذهلة الجمال..

بغتة، رأت الصبايا الأربع المشهد التالي:

ثلاثة صبيان، ظهروا في المشهد، كأنهم نبعوا من الأرض.. كأن الأرض انشقّت وأطلقتهم.. كأنهم حلم لا واقع.

من أين جاء هؤلاء الفتية الممتلئون بالحياة والبهجة والجمال؟

صبيان في عمر الورد، يضجّون بالصبا والجمال، وقد لوّحتهم الشمس، فبدوا كأنهم أعواد حنطة ذهبية نمت فوق ذلك البساط العشبي.

تجمدت الصبايا أمام المشهد المباغت.

تجمد الصبيان أمام المشهد المباغت.

وقف الفريقان، كل منهما مبهوراً بالآخر.

في تاريخ البرية، في تاريخ الصبايا، في تاريخ هرب سلطانة من المدرسة.. في كل تلك التواريخ، لم يحدث هذا من قبل، لم تظهر أعواد القمح الذهبية قبل اليوم..

مباغتة أكثر من حلوة، كان هذا إحساس الفريقين.

الصيادون الثلاثة، كانوا قد خرجوا للصيد في ساعة مبكرة من ذلك الصباح، أنهوا ظهيرتهم بصيد مقنع وكافٍ. دون الكثير من التفكير، قادتهم خطاهم، إلى هذا المكان الشاسع، الرحب، ليقوموا

بالشواء، و(بغتة) التقوا جميعاً هنا.

زهرة، سميرة، عائشة وسلطانه، مع حسين، فرهاد، وإبراهيم.

أشعل الشبان النار ونظفوا الأرانب وبعض الحمائم والعصافير.. وهكذا توسعت دائرة البساط الملون فوق بساط العشب، وتقاسم الجميع الطعام: صيد الذكور وإعداد الصبايا.

بعد الطعام، كعادة هذه الجلسات، يأتي الغناء والثرثرة والضحك.

كان لحسين صوت جميل، شرع بالغناء، ونهضت الصبايا للرقص. إلا أن إبراهيم، بدا بين الجميع، الصامت الوحيد، الهادئ، وربما الخجول.

جلست سلطانة قربه، تاركة الآخرين في هرج ومرج، وراحت تحدثه عن المدرسة. لكنه، وبهدوئه، ولطفه، جعلها تغيّر رأيها، وهو يشرح لها أهم شيئين في حياته: الصيد، والمدرسة.

لأنه وُلد في عائلة فقيرة، لا تستطيع تحمل نفقات تعليم جميع أبنائها، لم يحظَ إبراهيم بمتعة الذهاب إلى المدرسة. لأنه البكر، كان عليه، كما يحدث في أغلب القصص، أن يعمل ويساعد في مصاريف المنزل، حتى يستطع بقية إخوته متابعة تعليمهم. كان ينظر إلى أصدقائه الذين يذهبون إلى المدرسة بحسرة، ولكن دون غيرة. وظلت هذه الحسرة مرافقة له: «أنت لا تقدّرين النعمة التي بين يديك، هذا حظ يا سلطانة، حظ تحسدك عليه كثير من الفتيات اللواتي لا يستطعن متابعة تعليمهن، تابعي الدراسة سلطانة، لا تتغيبي عنها، أمامك الكثير من الإجازات للتمتع بالشمس وجمال البرية، العلم حرية أكثر وأكبر من هذه البرية..».

تحدثا طويلاً، في أشياء كثيرة. أحست سلطانة وكأنها تحلم، كما لو أنها في منام، تجري أحداثه في البرية، مكانها المفضل.

سبق لها أن صاغت الكثير من الأحلام هنا، حين تكون هنا في البرية، أو حين تكون في البيت. تحت شجرة التوت في ساحة الدار، حاكت سلطانة الكثير من أحلامها. يكفيها أن تغمض عينيها، لتترك خيالها ينطلق وحده، دون جهد منها أو تدخل، ينطلق ويصوغ تفاصيل أحلام كثيرة. إلا أنها لم تحلم يوماً بما تحياه في تلك اللحظات مع إبراهيم. ما حدث أقوى من أحلامها، أكثر إبداعاً واختراعاً وابتكاراً.. راحت تتحدث إلى إبراهيم مشككة، متسائلة بينها وبين نفسها، إن كان ما يحدث، حلماً أو حقيقة.

لم تجلس يوماً على هذه المقربة مع شاب غريب، بهذه الحرية في تبادل الحديث، ولم يخفق قلبها يوماً هكذا، ولا أحست بهذه السعادة يوماً.

في تلك الليلة، الليلة الواصلة لذلك النهار، لم يتمكن أحدهما من النوم، لا سلطانة ولا إبراهيم.

أحست بحزن مباغت، تلا ذلك الفرح.. حزن يشبه الخوف، الخوف من ألّا يتكرر ذلك الفرح، من أن يكون حلماً عابراً، ولا يتجدد. إنه خوف الفقدان.

كل منهما يفكر بالآخر بقوة، كما لو أنه يبدأ صفحة جديدة ومختلفة في حياته، صفحة غير متوقعة، مباغتة، في يوميات متكررة ومتلاحقة. شعر كل منهما بأن لحياته نكهة مختلفة، بدأت في نهار ذلك الربيع، في تلك البرية الخضراء، حيث اللون الأخضر منبسط براحة ومتسيّد المساحات، الأخضر الذي تعشقه سلطانة،

عاشقة الخضرة والعشب، عاشقة البرية.

في النهار، وفي المدرسة، مع أنها لم تنم، قضت يومها سعيدة، راكضة، مبتهجة. انتابها إحساس غامض، أنها ستراه واقفاً أمام باب المدرسة، في نهاية الدوام.

كان إبراهيم يعشق الشعر، وكان يكتبه أحياناً.

مع أنه لم يذهب إلى المدرسة، تعلم الكتابة والقراءة عبر إخوته الأصغر منه، وعبر كتب أصدقائه الذين ذهبوا إلى المدرسة.

كان يحب الشعر الذي يسمعه، ثم تمكّن من قراءته، وراح يكتب البعض منه أحياناً.

إلا أنه، مع سلطانة، صار يكتب أكثر من قبل، حتى أحسّ واقتنع بأنه أصبح شاعراً.

سلطانة التي لم تهتم يوماً بهذه العوالم، صارت تحب الشعر. وصارت تكتب ما تعتقد بأنه شعر، رداً على أشعار إبراهيم.

لهذا أحبت المدرسة، أصبحت لديها شهية نحو العيش، نحو حب كل شيء، حيث ينتظرها إبراهيم أمام المدرسة، في نهاية كل يوم، ليكملا طريقهما معاً.

حين مالت الشمس نحو المغيب، مال إبراهيم صوب سلطانة.

كانا في ذلك الممر الضيق خلف البيت الكبير، منزل أهل سلطانة. حيث تعرّش شجرة الياسمين وتنشر أغصانها وزهورها البيضاء كخيمة تخفي ما تحتها. تحتضن وتقي من كل عين حاسدة، من

كل نظرة شريرة، من كل أذى، هذين الواقفين تحت أغصانها، ملتصقين كأنهما واحد، في ذلك الممر.

كما لو أنها تواطأت معهما، حين اقترب إبراهيم من سلطانة، تدلّت الأغصان وهبطت أكثر وأكثر، ولمّا أطبق بشفتيه على شفتيها، كانا غارقين تماماً في الياسمين، ودارت بهما عريشة الياسمين.

قبلة من ياسمين، ستحرك في ذاكرتهما إلى الأبد، رائحة الياسمين كلما تذكرا القبلة، بل، وكلما عبر أحدهما بالياسمين، سيستعيد طعم القبلة، قبلة الياسمين، قبلة من ياسمين.

- ١١

اليوم، في بداية شهر أيار، تبلغ سلطانة عامها الثالث عشر. استيقظت مذعورة لمرأى غطاء السرير. بقع من الدم تلوث الملاءة والغطاء، مختلطة بزهور الياسمين المسحوقة في السرير. نهضت مكتشفة رسالة متروكة على طاولة السرير، في جوارها.

كان قد غادر، حينما كانت غارقة في الحلم. نظرت من النافذة، المتاخمة لسريرها، والتي تقع فوق الحديقة، هنا، حيث شجرة الياسمين. انتبهت بغتة إلى أن الشجرة قد كبرت بسرعة وعرّشت كثيراً واخضوضرت، كما لو أنها سعيدة من أجلها، تقاسمها تلك الحكاية الحالمة. مدت يدها من النافذة، ولامست غصن الياسمين المعرّش نحوها، داعبته بلطف، معتذرة عما وقع في الليل. إلا أن الياسمينة، ازدادت ابيضاضاً حين لمستها يد سلطانة، كأنها شجرة من ثلج، واحتشدت بياسمين فرحان وسعيد ومبتهج.. ياسمين هو

ابتسامات الشجرة وقهقهاتها.. لم يكن أمام شجرة الياسمين من وسيلة أخرى للتعبير عن فرحها، سوى طرح هذا الكم الهائل من زهر الياسمين.

سقط الياسمين وتطاير كندف الثلج في الهواء، طار كفراشات بيضاء تغزو الحديقة.. قهقهت سلطانة بفرح، متلقية رسالة الشجرة، التي لم تكن حزينة ولا عاتبة مما حصل.

في الليلة الماضية، وللمرة الأولى، كان إبراهيم في سرير سلطانة. في اللحظة السحرية، العالية، حيث أعلى الشهقة، بحثت سلطانة عمم تتمسك به، يؤازرها في أقصى تلك المتعة الموجعة، فوقعت يدها على غصن الياسمين، شدته بقوة وهي تشهق، فانسحق الياسمين داخل فراشها. في الصباح، وجدته مهروساً على فراشها، مختلطاً ببقع الدم التي أحدثها تواجد إبراهيم في فراشها.

في ذلك الصباح، تصرف جميع أهالي القرية بغرابة. لم يرغب أحد بمغادرة السرير. لدى الجميع رغبة واحدة فقط، هي البقاء في السرير. رائحة الياسمين اقتحمت القرية. لم تكن مجرد رائحة. بل رائحة ممتزجة بالرغبة، بالشهوة. كان كل شيء «ميسمناً»، له رائحة الياسمين. وجنات الزوجات، شفاههن، أذرعهن، سيقانهن، بل وكذلك أجساد الأزواج.. كل خلايا الأجسام امتلأت برائحة الياسمين المثير للرغبة. أما العازبون والعازبات، فقد رافقت شهوة الياسمين أحلامهم، محرومين من متعة عيش الحب، عيش شهوة الياسمين، خارج الحلم.

رائحة غامضة، غريبة.. تثير الشهوة، والسعادة.. رائحة تثير الاسترخاء، تزيل القلق والتوتر والهم.. تثير الرغبة بالوجود مع

الشريك.. رائحة تنفّر من الوحدة، تنبذها.. رائحة تحرّض على البحث عن الآخر.. عطر غامض، عطر الشهوة، شهوة الياسمين التي يحركها شذا العشق.

- ١٢

حين فرّت سلطانة نحو البرية، صحبها إبراهيم لدى تميمة، التي فحصت الصبية، ثم نظرت إليهما، إلى إبراهيم وسلطانة مذعورة. فهم إبراهيم تلك النظرة. حاولت تميمة التخلص من خوفها قائلة: «لا تقلقا، سنحتفل بكما». لكن الصبية والشاب شعرا بالخوف. قالت سلطانة لإبراهيم: «يجب أن نغادر القرية على الفور، سيقتلونني!». لكن إبراهيم لم يشأ مغادرة القرية وترك أهله الذين سيكونون في خطر حتى في حال رحيله. ولثقته الكبيرة في تميمة، التي ستحلّ الموضوع قبل انكشافه، وهي الخبيرة والعالمة بحلول القصص الشائكة والمعقّدة. فقد رفض الفرار مع سلطانة، محاولا تهدئتها: «كل شيء سيكون كما نريد، اعتمدي علي واطمئني، سنتزوج ونربّي طفلنا هنا».

دعت تميمة شريف إلى زيارتها في البرية.

لم تتمكن تميمة من النوم في تلك الليلة. ماذا ستقول له؟ هل تخبره بالحقيقة كاملة؟ أم تقطّعها له، مثلاً، تقول له بأن الشابين عاشقان؟ كيف سيكون رده؟ لن يقبل، سيثور ويغضب.. إنه ينتظر حدوث هذا، أو يخاف حدوثه دوماً، لن يحتمل.. سيزوجها إذن؟ يزوج سلطانة لإبراهيم لاتقاء الكارثة؟ حتى ولو كان إبراهيم من عائلة فقيرة، ولا يجوز له التفكير بالارتباط من فتيات الأثرياء وكبار القرية؟

شريف أيضاً، لم يغمض له جفن في تلك الليلة. لم تطلبه تميمة يوماً، هذا يعني أن الأمر جسيم.. لا بد من أن كارثة تنتظره غداً!

ترك سريره باكراً قبل طلوع الضوء، غير محتمل لمزيد من الانتظار، وأسرع للوصول إلى البرية، مع طلوع الضوء.

ما أن لمح شريف تميمة، حتى حثّ خطاه أكثر، وكأنه يركض. لم يتحمّل بطء قدميه، وكأنه يسير في المنام، ولا يتقدم. كانت تميمة مستلقية أمام باب منزلها الخشبي، كأنها قضت ليلتها في الخارج. وصل شريف قربها وارتمى محاولاً استرداد أنفاسه، كاد يموت من اللهاث والتعب، هزّ تميمة ليوقظها، ممتقع اللون، منقطع الأنفاس، خائفاً أكثر من عادته في الخوف من كل ما يتعلق بابنته. حين لم تستجب تميمة لصوته وهزّاته الخفيفة، أمسك شريف برأس تميمة وشدها نحوه بهمجية ونفاد صبر، محاولاً إيقاظها.

في ذلك الصباح، خرجت القرية كلها، لا احتفالا بعرس سلطانة وإبراهيم، كما حلمت تميمة، بل، خرج الجميع في جنازة تميمة.

ـ ١٣

بدأ بطنها ينتفخ، وراحت تكرر اللازمة ذاتها: «خائفة.. أريد الفرار.. سيذبحونني».

كان إبراهيم موقناً بأن والده سيجد حلاً، سيتمكن من إقناع شريف بإتمام الزواج.

«لا تقتلوني أرجوكم، أتوسل إليكم.. لا تقتلوني.. الرحمة! لا

تقتلوني.. بحق السماء.. لا تقتلوني».

راكعة على ركبتيها، متوسلة كلّاً منهم، مقبّلة الأرض بين أقدامهم، راحت ترجوهم كي يبقوا على حياتها.

خلف الأبواب الموصدة، كان سكان القرية يسمعون توسلاتها، نحيبها.

قبّلتْ قدميّ والدتها، زاحفة عندهما: «أمي، ساعديني، أنا حامل! دعيني أعيش فقط لوضع جنيني واقتلوني بعدها.. أمي، أنت تستطيعين منعهم من قتلي، ساعديني أماه، فأنت تعرفين معنى الأمومة». كادت الأرض تتمزق ألماً من صراخها ونحيبها ونشيجها، كادت الجدران تتشقق عطفاً عليها، هي المتمسكة ببعض اللحظات من الحياة، لا حرصاً على حياتها، بل أملاً في منح الجنين الذي يتحرك في رحمها فرصةً للنجاة وللعيش.

مقبّلة حذاء والدها: «أبتاه، دعني أعيش حتى ألد طفلي، اقتلوني بعدها. تفصلني عن الولادة ساعات قليلة، لا تحرموا طفلي من الحياة، أبوس قدميك أبي، دعني ألد ثم اقتلني كما تريد.. اذبحني كخروف بين يديك، مزّق لحمي، قطّعني، ولكن فقط، دعني أضع طفلي». متمرّغة على الأرض بينهم، بين أمها وأبيها، وإخوتها الثلاثة، ترجوهم أن يتركوها تعيش لساعات أخرى، حتى تضع جنينها.. لكن، دون جدوى(٥).

---

(٥) مكرر

بنات البرية

يسمونها البرية.

لا أحد يعرف لماذا يطلق البعض هذه التسمية على المرعى.

ثمة طقوس مدهشة تمارس هناك، في البرية.. خاصة في الربيع، موسم الحويش.

وبعض النسوة يتلقطن رزقهن من هناك.. كصبيحة الوارد ذكرها سابقاً.

هو مهرجان مختلف الفعاليات.

فتيات يخرجن للتنزه، يرجعن بباقات من ورد الربيع، شقائق النعمان، الأقحوان، الورود الصغيرة الملونة التي لا يعرفون أسماءها، النرجس الأصفر،.. يعدن بها ليملأن بيوتهن بالرائحة وجمال الورد.

ثمة نسوة يعدن بحصاد نافع، أزهار البابونج التي تفيد للسعال وأوجاع المعدة أيضاً، الزعتر البري، متعدد الفوائد، أو الخبيزة[٦]، كما تفعل صبيحة، أو حتى السلبين «العكوب»[٧] والفطر والكمأة..

هو تجمع بناتي على الأغلب. تخرج إليه الصبايا، والنساء الشابات، لأن وساعة البرية، وبعدها نسبياً عن القرية، يحتاج لمشي على الأقدام، ورشاقة وجهد لا تحتملها كبيرات السن.

أما ظاهرة البرية، عدا تميمة التي تسكن في كوخ ناءٍ، قلما تقترب منه الصبايا، فهو وحيد، الأستاذ وحيد.

---

(٦) الخبيزة نبات ينتمي للفصيلة الخبازية ينمو في الوطن العربي وأوروبا وآسيا، تُعدّ الخبيزة حشيشة في كثير من البلاد تطبخ وتؤكل خضراء. ويكيبيديا.

(٧) العَكوب أو السلبين (باللاتينية: Gundelia tournefortii) هو نبات جبلي ينمو في مناطق بلاد الشام الداخلية. يطبخ لبه بعد إزالة الأشواك الخارجية. يطبخ مع اللبن ويعد أكلة شعبية في فلسطين وسورية والأردن. يتبع العكوب الفصيلة النجمية (باللاتينية: Asteraceae). الأسماء المتداولة: العكوب ـ شوكة النصارى ـ الخرشف العكوب نبات بري شعبي معروف، له موسم قصير حيث يظهر في أواخر فصل الشتاء، وأول فصل الربيع.. ويتهافت عليه بعض الناس لشرائه وينمو في المناطق السهلية والجبلية التي ينبت فيها هذا الغذاء الطيب المذاق رغم صعوبة التقاطه وتجهيزه بسبب ما يحمل على رأسه من الشوك.. وهو يذكرنا بفاكهة الصبر الذي يتميز أيضاً بقشره الشوكي. والعكوب الذي يعتبره البعض من أطيب الأكلات العربية في بلاد الشام يتصدر قائمة الحشائش والأعشاب البرية الغذائية الربيعية التي تزيدها الأمطار نمواً مبكراً وسريعاً في هذه الأيام. ويكيبيديا.

الأستاذ وحيد هو المدرس الوحيد في القرية. حيث يجتمع كل الطلاب والطالبات في صفين، لأن المدرسة عبارة عن حجرتين فقط. يوزع وحيد مستويات الطلاب على أربع مجموعات، في كل صف يضع مجموعتين، ويتابع التدريس متنقلاً من حجرة لأخرى، مقسماً وقته بين الشرح، وإعطاء الطلاب التمارين والأسئلة، لحين ينهي شرح المجموعة الأخرى، وهكذا..

كانت متعته الكبيرة، بعد انتهاء المدرسة، وفي أيام العطل أيضاً، الذهاب إلى البرية. يستخدم وحيد تعبيراً كانت تحس به تميمة ولا تتقن استعماله، ولو أن سلطانة سمعت وحيداً يقول هذا، لانتبهت أنها هي أيضاً تشعر بهذه الحالة، إذ يقول وحيد «أفكّر عبر العشب الأخضر».

يأخذ كتبه، وهي غالباً روايات، ليقرأ هناك.. في البرية.

لا يحب وحيد القراءة جالساً.. لا يمكنه القراءة، وخاصة الروايات، إلا وهو يتحرك، يمشي. كما لو أن أحداث الرواية تجبره وتدفعه إلى التحرك معها..

حين يشرح الدرس، فهو يفعل جيئة وذهاباً.. ورغب ذات مرة، في أن ينقل دروسه وطلابه إلى البرية، حيث تساعده المسافات الواسعة، ولكنه خشي من سخرية الأهالي والطلاب.

كانت مشاعره وانفعالاته تضطرم أثناء القراءة، فلا يحتمل الثبات في المكان، لهذا فإن البرية، خاصة في الربيع، ودخول العشب الأخضر، تحقق له المزيد من المتعة.

اعتاد أن يحمل دفتراً صغيراً يدون فيه ملاحظاته، وكان يكتب ماشياً.

كانت بنات البرية يلمحنه من بعيد، بينهن طالبات له، يتساءلن عما يفعل، فتجيب كل منها وفق ما تحلل: «إنه يكتب قصة.. فهو يحب قراءة القصص»، «لا إنه يُعدّ الدروس»، «لا، هو يسجّل لائحة المشتريات»، «بل، يسجل ما يراه في البرية.. يكتب أسماء النباتات.. يصف السماء.. انظرن كيف يتوقف عن الكتابة، متأملاً السماء أو العشب، ثم يعاود التسجيل»..

كان وحيد منسجماً مع اسمه. فهو وحيد في عدة أشياء، كما لو أن اسمه، خُلق له، فهو:

ـ الأستاذ الوحيد في المدرسة.

ـ الرجل الوحيد الذي يذهب إلى البرية، وإذا صادفته فتاة أو سيدة، فهي لا تنزعج منه.

ـ الصبي الوحيد على خمس بنات.

وحيد هو شقيق صبيحة. الأصغر بين أخواته الخمس، آخر العنقود، وُلد يتيم الأب، حيث مات أبوه وأمه لا تزال في شهرها الخامس.

وجد وحيد نفسه بين ست نساء مصرّات على العمل، ليقدمن له حياة أفضل. كانت النساء الست ينمن في غرفة واحدة، بينما ينام وحيد في غرفة خاصة. الوحيد الذي تابع تعليمه. عملت أمه وأخواته في عدة مهن، من قطاف النباتات، وتنظيف البيوت،

وغسيل السجاد والصوف.. حتى يعشن ويؤمّن له أيضاً نفقات العيش والدراسة.

تزوجت صبيحة، كبرى أخواتها باكراً، وترملت باكراً، بعدما ترك لها زوجها، وبعد سنتين فقط من الزواج، ثلاثة أطفال، توأمها الأول، بنت وصبي، وبنتاً ثالثة جاءت بعد التوأم.

عاشت صبيحة من بيع الخبيزة والحويش والسلقين والحميضة والزعتر الأخضر والنرجس الأصفر... في موسم الربيع، ومن العمل في البيوت في الشتاء.

حين يأتي الربيع إذن، ويخضرّ المرج، أو البرية، تنتشر الألوان والبهجة في القرية. يمكن الاستعارة قليلاً من أسماء السعود[٨]، إذ ينطبق وصف سعد الخبايا، فتتنقّل الصبايا. للقول أنه في هذا الفصل الربيعي، يمكن وصفه بفصل الصبايا، أو فصل البنات، حيث قصصهن، ويا لقصص البنات وسردهن الشفهي الخارق، الصعب ضبطه تدويناً، تملأ قصصهن وحكاياتهن وسردهن واعترافاتهن وضحكاتهن البرية.. البرية التي تكاد تكون وحشية في فرادتها وخصوصيتها ووقفها على الصبايا فقط، لولا استثناء الذكر الوحيد، الأستاذ وحيد، الغائب عن البنات في عوالمه الخضراء، التي يحركها ويحرضها العشب الأخضر.. فيرى البنات بعينيه، ولكنه لا ينتبه إليهن، غارقاً في أحداث الروايات التي يقرأها، وربما التي يكتبها «لا أحد يمكنه الجزم في ما لو كان يكتب أيضاً».. إن هذا

---

(٨) أو خمسينية الشتاء، مدتها ٥٠ يوماً، تقسم على أربع سعود: الذابح، البالع، السعود، الخبايا. سعد الخبايا: وهي فترة تبدأ يوم ١ آذار وتنتهي في ٢٢ آذار. ويقال إنه في سعد الخبايا بتطلع الحيايا وبتتفتل الصبايا.

الفصل من السنة، هو بجدارة كاملة، فصل البنات، فصل بنات البرية. كلما سُئلت إحداهن عن وجهتها، خارجة مبكرة، أو متأخرة، وحدها أو متأبطة ذراع صديقتها أو جارتها:

ـ إلى أين؟

ـ إلى البرية.

أحمر قانٍ

حين وصل إبراهيم، تنفّست القرية الصعداء.

كان من المحال فصل المولودة عن جسد المقتولة.

اقتنع الجميع، بأن إبراهيم فقط يمكنه فعل هذا. كان الجسد الميت يحتضن الجسد الحيّ بقوة، وكأنه ملتصق به، كأنهما جسد واحد.

أنين الميتة لم يتوقف. لا أحد يعرف من أين يخرج هذا الصوت، فهو لا يصدر عن صدرها المتوقف عن التنفس. أنين موجع مؤلم. كلما أنّ الصوت، أنّت الأجراس معه. جوقة أنين تسبب الذعر والتوتر والخوف، كأنه عقاب متواصل.

اقترب إبراهيم من جسد سلطانة. وضع يده الحانية على جبينها، فسمع تنهداتها. تنهدات مختلطة من ألم الافتقاد والفرح معاً.

سمع جميع سكان القرية ذلك الصوت.. تنهيدة عميقة، تشبه آه الارتياح المعجونة بالحزن. ارتياح الميت وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، متخلصاً من عذاب طلوع الروح، خائفاً في الوقت ذاته، من مفارقة الحياة. ذلك الألم المرعب الذي نادراً ما يستطيع العالقون بين الحياة والموت وصفه، لسرعته، فهو حالة طفيفة، شفافة.. ألم يسبح صاحبه في داخله، ألم شفاف، كأن «الطالعة روحه» محبوس داخل كتلة هواء كثيفة، أو مستلقٍ فوق سحابة ماء.. جسده خفيف، أو ميت، وقد توقفت أنفاسه عن التحرك. إلا أن روحه تطوف حول جسده، حول المكان الذي يحبه، حول أصدقائه وأحبائه وأهله.. روح تتألم وترغب بالتصديق، بأنها غادرت جسدها، وانتهت مهمتها الحياتية. أن عليها الابتعاد عن الجسد وتركه يغوص تحت التربة.

أنّت سلطانة وكادت دموعها الناشفة تطفر من عينيها الميتتين، من شدة التأثر، إلا أن الموت حرم عينيها لذة الدمع الأخير، دمع الفرح بالخلاص، خلاص عذاب الجسد.

«تألمتُ كثيراً يا إبراهيم. رأيتهم يذبحونني. جزّوا عنقي وكأنني خروف. أتذكّر يا إبراهيم، حين كنت أرى الكبار يذبحون الخراف أو الدجاج أو الأرانب، كنتُ أُصاب بالغثيان. لم أكن أتحمّل منظر الدم. لكنهم ذبحوني يا إبراهيم. تألمتُ كثيراً، تألمتُ على مراحل. تألمتُ خوفاً حين أخذوا عنقي ورموني والسكين تلتمع تحت عينيّ.. تقيأتُ من الخوف، صعدت معدتي إلى رأسي. كان جسدي يرتجف كأنه ورقة خفيفة أمام الإعصار، لم أتمكن من الوقوف على قدميّ.. لقد قرأتُ قليلاً عن أحكام الإعدام. عن القتل، ولكنني لم أقرأ أبداً عن الذبح، لم أقرأ عن أوجاع المذبوح.

لو أنهم رموني من أعلى جبل، أو خنقوني، أو أحرقوني.. آه ه ه ه
آه أخرى ندّت عن سلطانة.. لا، الحرق أيضاً صعب، والخنق صعب، الموت صعب، الموت مقتولاً صعب.. نعم، خفتُ.. خفتُ على مراحل، تألمتُ على مراحل. تألمتُ خوفاً. ثم تألمتُ ألماً حقيقياً، ألم الذبح.. حين راحت السكين تمشي على عنقي.. كأنها منشار تحزّ لوح خشب لا روح فيه ولا إحساس..

قبل أن يذبحوني، توجعت خوفاً من الموت.

توجعت وهم يذبحونني.

توجعت وأنا أرى رأسي يسقط عن جسدي..

لا يمكنني أن أصف لك مراحل الوجع، كل مرحلة صعبة، ما من واحدة أصعب أو أقل صعوبة.. لكل مرحلة عذاباتها. أيحدثوننا عن عذاب القبر؟ أظنني تذوقت كل أنواع التعذيب.

ذبحوني، ورأيت رأسي يتدحرج. لا، لأكن أكثر دقة، فأنت لن تسمع هذا الكلام مني مرة أخرى. لم أرَ رأسي يتدحرج، بل رأيت العالم يتحرج، شعرت برأسي يتدحرج، ورأيت جسمي.. رأيته أمامي، دوني، دون رأسي. وشعرت مجدداً بالغثيان، لكن كيف أغثي؟ معدتي منفصلة عن رأسي، وأمعائي ظلت هناك، مع جسمي.

علّقوا رأسي على البوابة، كنت أحسّ بدمائي تتقاطر مني، كما لو أنني قبعة مغسولة، لم أُعْصَرْ جيداً.. مبللة بالكثير من الدم.. أنقّط، أنا لا القبعة، بل الرأس.

لكنه الحب يا إبراهيم.. الحب المباغت الذي شعرت به بقوة كبيرة وأنا أنظر إلى طفلتي، كومة لحم مرمية قبالتي.. أعادتني إلى جسدي. إنها معجزة يا إبراهيم.. عاد رأسي وركب فوق جسدي. لقد متُّ وعدت ثانية.. لا تدفنّي يا إبراهيم.. لا أريد الذهاب بعيداً، لا أريد النزول إلى عتمة القبر، إلى الرطوبة. كيف تحرمني من الشمس؟ تعرف كم أنا متعلقة بالشمس، بالبريّة، بالياسمينة، بالخبيزة والنرجس والشقشقيق[٩] كيف تضعني في العتمة، وتطمرني بالتراب.. لتأكل الديدان جسدي، وتعبث الجرذان بشعري وعظامي ودمي.. أخاف من الجرذان يا إبراهيم، أخاف من العتمة، أخاف من البرد، أخاف من الموت يا إبراهيم.. أنا خائفة.

آههههههههه طويلة، هزت ذبذباتها القوية القرية وكأنها مسّت السماء.

ـ إلا أنك ميتة سلطانة.. لقد متِّ، يجب عليك تقبل الأمر. أجابها إبراهيم.

ـ إذا كنت ميتة، فكيف أتحدث إليك وتسمعني؟

ـ إنها روحك سلطانة، الروح التي لا تموت أبداً.

ـ روحي حية إذن؟

ـ الروح خالدة يا حبيبتي.

ـ ولكنني أريد البقاء هنا، معك ومع ابنتي، لا أريد الذهاب بعيداً

---

(٩) الاسم العامي لشقائق النعمان.

عنكما، أخاف على الصغيرة.

ـ أفهمك حبيبتي، ولو كنت أستطيع فعل أي شيء لبقائك هنا لفعلت، ولكن الأمر قضي.. لا يستطيع الموتى مشاركة الأحياء حياتهم. اذهبي أيتها الغالية، وأنا أعدك بالاعتناء بالصغيرة.

ـ كما لو أنني هنا؟

ـ نعم.

ـ ستحدثها عني؟

ـ طبعاً.

ـ وإن وقعتْ في الحب ذات يوم، فستحميها، تحمي حبها وحياتها. عدني بهذا، يجب ألّا يقتلوا ابنتي كما قتلوني، لا يمكن أن أموت مرتين.

ـ أعدك.. سأحمي حبها وحياتها.. هذا وعد سلطانة، وعد من إبراهيم الذي أحبك وحدك وسيحبك حتى مماته.

ـ سوف تعلمها الحب، وتحكي لها عن حبنا.

ـ نعم، سأفعل، ارتاحي أنت واعتمدي علي.. أعدك.

ـ وحين ذات يوم، تبلغ، وتغادر عذريتها، كفراشة تخرج من الشرنقة، سوف تروي الزيزفونة بدماء عذريتها، أتفعل؟

ـ نعم، سأفعل.

ـ هذا عهد بيننا إبراهيم.

ـ هذا عهد سلطانة.. أعطِني الصغيرة الآن، وارحلي بهدوء.

ـ خذها.. إنها أمانة بين يديك، أنا لا أثق في غيرك، وليس لها غيرك.

ـ أعدك بحمايتها، لن يمسها سوء، وستعيش سعيدة.. سعيدة كما تشتهين لها.

انحنى بلطف نحوها وأخذ الصغيرة من بين ذراعيها.

دفن إبراهيم جسد حبيبته سلطانة تحت شجرة الزيزفون، كما طلبتْ منه. ما أن توقفت الصغيرة عن البكاء، حتى توقف على الفور ضجيج أجراس الورود السحرية، أو الورود «الجرسية».

أخذ إبراهيم صغيرته، حامياً إياها من كل آثام العالم وجرائمه، والتجأ بها، منعزلاً عن كل الآخرين، في البرية، حيث ولدت قصة حبه الكبيرة، تلك التي خلقت طفلته هذه.

لم يجد إبراهيم لابنته مكاناً أكثر أمناً من كوخ تميمة ذاته. كما لو أنه حل محلها. سكن في كوخها وتقاسم أغراضها مع صغيرته.

تحول إبراهيم إلى رجل زاهد. تخلى عن الحياة وبهجتها، ولم يعد يهمه العيش إلا لمتابعة عيش الصغيرة. رسالته الباقية، التي سمح من أجلها لأنفاسه بالصعود والهبوط داخل صدره، هي الحفاظ على هذه النبتة التي تركتها سلطانة أمانة لديه. لم يتمكن من تقبل الحياة الكريهة الظالمة، لكن، من أجل هذه الصغيرة، ترك جسده يحيا، بينما هامت روحه مندسّة تحت شجرة الزيزفون، متجولة من

هناك، في حديقة المنزل، إلى هنا، في البرية، متنقلة بين سلطانة الراقدة تحت شجرة الزيزفون، وصغيرتهما، التي راحت تمصّ إصبعها تعويضاً عن حلمة أمها الراحلة. كان عليه أن يحيا ليرقب أمنهما، أمن المستلقية في الحديقة، بروحها ترقب صغيرتها، وأمن الصغيرة التي صار وحده مسؤولاً عنها.

لتمضية الزمن الممل، الحياة الواقعية، الشروق والغروب، الليل والنهار.. للتخلص من وطأة الزمن الكريه، استعان إبراهيم بالشعر. كان يكتب الشعر ويغنيه، لتحمل ثقل العيش الذي أُجبر على متابعته، إخلاصاً لعهد قطعه لحبيبته.

راجت سمعة قصائده وطارت كلماتها في أرجاء المعمورة. صار الصغار والكبار يرددون كلمات تلك الأغاني التي تقطّع القلب، وتخلق سعادة غامضة، سعادة تتسبّب في بكاء مبهم، لذيذ، ممتع.. سعادة مصحوبة بأناقة عالية، أناقة الحب المقتول، المدفون.. وخاصة أغنيته المذهلة «تحت شجرة الزيزفون ترقد حبيبتي لتحيك شال الصوف الأخضر»، أصبحت بمثابة أغنية متكررة يستعملها العشاق للتدليل على الفقدان، وبقاء الحبيبة رغم الموت.

الصوفي الأشهر، في تلك الحقبة كان «الشيخ إبراهيم». لا يعرف أحد من أين أتاه لقب الشيخ، وهو لا يصلي ولا يعرف الأديان. حتى أن أحداً لم يرَه، بل تخيلوه فقط، إذ إنه أصرّ دوماً على الاحتجاب والعيش داخل ظلمة الكوخ، لا يخرج إلا في الليل، أو حين يتأكد من خلو البرية، تماماً كوحش يخاف البشر، يخافه البشر ويهابونه. صار إبراهيم أكثر قداسة وغرابة وامتلك هيبة تجاوزت تميمة ذاتها، كأن حلوله في كوخها، وصورة المرأة الراقدة تحت شجرة الزيزفون تحيك الشال الأخضر لصغيرتها، صنعا من

إبراهيم أيقونة مختلفة للوفاء والحب والطاقات الخارقة لرؤية البشر والحياة.. الحكمة التي يبحث عنها كل نهم للمعرفة، لمعرفة ذاته ومستقبله. صار إبراهيم رمزاً للحب الخارق، الحب الذي يجعل الكثيرين يقسم بأنه سمع تنهيدات راضية مستمتعة تأتي من تحت شجرة الزيزفون.

كثرت الأقاويل عن إبراهيم، وأضافت عليها مخيلة الناس تفاصيل غير واقعية. لا ننكر أنه تحوّل إلى وحش يعيش في تلك الفلاة، حيث لم يحلق لحيته منذ رحيل حبيبته ونزولها للاستلقاء تحت شجرة الزيزفون.

صار منظره أشبه بوحوش الغابات، وصار الناس بمرور الأيام يخافون الذهاب إلى البرية، حتى كاد يصبح المالك الوحيد لذلك القفر الواسع. صار يخرج في بعض النهارات، متأكداً أن لا أحد يجرؤ على وضع قدمه في مملكته.

كان بعض الصبية الجسورين يتسللون إلى البرية ويتلصصون من خلف أشجار التوت والصنوبر والجوز.. قابعين ساعات وساعات بانتظار خروج أيقونة البرية.. حين كان أحدهم، وبعد ساعات، وربما أيام من السكون هناك، يلمح ذلك الرجل الضخم، خارجاً من الكوخ الخشبي، حاملاً «طنبوره»، جالساً تحت أشعة الشمس، مغنياً قصائده التي لا بد أن يرد فيها ذكر سلطانة.. فإن تلك اللحظات الاستثنائية تكون بمثابة الحج، إذ يمكن لذلك الرائي، المختبئ خلف الشجرة أن يطلب من السماء ما يشتهي ويتمنى، فيتحقق حلمه وتستجيب السماء لذلك الدعاء.

هكذا راحت الصغيرة تكبر وحيدة في تلك البرية، لا تعرف عن

الحياة سوى هذا الامتداد الشاسع، وهذا الرجل الضخم، ذي اللحية الطويلة، وحيوانات وأشجار وعناصر البرية.. كانت وإبراهيم، الكائنين الوحيدين، البشريين، في تلك الفلاة الواسعة المنزوية، البعيدة.

عاشت ***[١٠] وكبرت في المكان الذي كان جنة أمها، الجنة الخضراء. إلا أنها لم تعرف عن اللون الأخضر، سوى ما سمعته في أغاني والدها عن الشال الأخضر الذي حاكته سلطانة، ولم تره، ولم تفهم يوماً معنى الأخضر ولا معنى الألوان، إذ علينا ألا ننسى أننا لا نزال جميعاً، سكان القرية، وقرّاء هذه الحكاية، تحت وطأة وسلطة وغزو لون واحد وحّد كل المشاهد وأعمى البصيرة، هو الأحمر.. لا شيء سوى الأحمر.. منذ ذلك الصباح الأحمر، حين قتلوا سلطانة، وصبغ دمها كل الأشياء وغطى كل الألوان.

حتى المرعى الأخضر، والبرية الخضراء، حين يرد ذكرهما أحياناً في قصائد إبراهيم، لم تفهم *** دلالات اللون، إذ كانت البرية أيضاً حمراء! لم يكن في حياة *** سوى الأحمر.. اللون الوحيد الذي عرفته منذ أدركت تفسير ما حولها.

جميع المواليد، الذين ولدوا بعد مقتل سلطانة، لم يعرفوا سوى هذا اللون. لم يعرفوا الأبيض أو الأسود أو الأخضر أو الأصفر.. ولدوا جميعاً محكومين بالأحمر!

عاشت *** إذن في جنتها الحمراء، متشبّعة بأغاني والدها الشجيّة، وبالآثار السحرية التي تركتها تميمة، فورثتها الصغيرة دون اختيار.

---

(١٠) لم يكن لها اسم.. كان والدها يناديها بابنتي، صغيرتي..

ورثت *** كل ذلك الشجن الساحر، خليط تميمة وإبراهيم.

رغم اللباس الموحد لكل ما حولها، اللون الموحد للطبيعة والأشياء والكائنات، ورغم حزن والدها العميق، وروح تميمة الباقية بحسرة، ورغم الوحدة، وعدم لقائها بأي كائن بشري، سوى والدها، كانت سعيدة.

لم تكن تعرف من العالم سوى هذا الجزء، لهذا فهي تجهل ما تحياه، فكيف تحزن وهي لا تعرف بأنها محرومة من الناس والألوان؟

عدا ذلك الصندوق الغامض الذي اكتشفته *** بمفردها، والذي آزرها ودعم سعادتها.

تعلمت *** القراءة والكتابة، حيث نقل إبراهيم ولعه بالتعلم إلى ابنته، وأمضى معها أوقاتاً طويلة ليعلمها قراءة كل شيء وفهمه.

حين عثرت *** على ذلك النفق، آثرت الصمت، ولم تخبر والدها به. كان سرها، لها، ملكها، لا يقاسمها إياه أحد، ولا يعلم بوجوده أحد.

كانت *** تلعب مع جديها المدلل، صديقها الثابت منذ لحظة تفتح وعيها بالأشياء. كانت محظوظة بالكثير من الأصدقاء الذين سعوا إلى صداقتها وأحبوها، فراشات البرية، عصافيرها، أرانبها، وكل كائناتها وعناصرها. كانت تلعب في بقعة أرض رخوة، وكأنها بغتة عثرت على حفرة مطمورة. حين أزالت التراب عن المكان، قادتها الحفرة نحو أخدود عريض.. مدت *** رأسها، وتمكنت من الهبوط بكامل جسدها ومتابعة ذلك الممر المفتوح

تحت تلك الحفرة. كان نفقاً طويلاً يمتد تحت البرية، دون أن يعلم أحد بوجوده. تابعت *** السير في النفق المظلم حتى وصلت إلى التركة الكبيرة، إرث تميمة بأكمله، كان هنا، داخل النفق.

صندوق كبير يعلوه الغبار. بفضول كبير مدت يدها ومسحت الغبار المتراكم الذي غطى العبارة، التي برقت بأحرف من ذهب: يمنع فتح هذا الصندوق لمن لم يبلغ الخامسة عشرة. يمنع التحدث عن هذا الصندوق إلى أي شخص كان، مهما كان. وإلا فإن روح تميمة، سيّدة البرية، تعود للانتقام، وتكون كارثة على العالم بأجمعه.

انتظرت *** بلوغها الخامسة عشرة. الأمر الوحيد الذي تجرأت على التحدث فيه مع والدها، هو سؤاله: من تكون تميمة؟

ظلت القرية دوماً غارقة في الأحمر. بمرور الزمن اعتاد الناس ذلك العيش، العيش الأحمر. كانوا يعيشون في الأحمر، يفكرون في الأحمر، لا لون آخر تراه العيون سوى الأحمر. اللون الوحيد، المتسلط، المطلق، الأوحد.

نحن إذن في القرية الحمراء، لا، لنكن أكثر دقة، فنقول، نحن في الأحمر. نحن في الظاهرة الحمراء، ظاهرة الأحمر.

كل شيء يُعرف ويُعرّف عبر الأحمر. كل شيء، كل مكان، حتى يمكن القول أيضاً، كل الأفعال والنتائج والتصرفات، كل شيء كان مصبوغاً باللون الأحمر.

من الطبيعي أن تكون البندورة حمراء. الفجل، اللفت، التفاح، إلا أنه ليس من الطبيعي أن يكون الخيار والخس والبقلة والبقدونس

والنعنع والبطيخ والقرنبيط والكوسا.. كله أحمر!

من غير المعتاد أن تكون أجنحة العصافير حمراء، وأن يكون وبر القطط أحمر، وكذلك وبر الأرانب. حتى ريش الطيور، كله أحمر!

الأفاعي، الحرباء، العقارب، كله أحمر!

نعم، كله أحمر. الأوراق، أغصان الشجر، الديدان، النمل، السجاجيد، الستائر، الحجر، التربة، الزجاج، ودون مزاح أو مبالغة، حتى الكلام كان أحمر. كله أحمر!

نحن في الأحمر.

كما لو أن ثمة رساماً ساحراً، صبّاغاً ربما، دلق طلاءه الأحمر فوق كل القرية، فألغى وحذف وغطى جميع الألوان. كله أحمر!

لا شيء سوى الأحمر. اللون الأوحد الوحيد الواحد. كله كله أحمر!

لا يمكن للمخيلة أن تتخيل هذا.. يولد الأطفال بأسنان حمراء، بؤبؤ العين أحمر، الأظافر حمراء!

نحن في الأحمر.

حتى الأنفاس حمراء، الهواء، بل والعذاب لونه أحمر.

ولكن السؤال الثابت، المتكرر، الرئيسي، الأكثر إلحاحاً: من هذا الذي يتوجع في كل لحظة ولا يكف عن التنهّد؟ لو أن الجميع

يتقبّل كارثة اللون، فمن الصعب إلى درجة الاستحالة، تحمّل هذه الكارثة السمعية.. هذا الأنين المتواصل، الذي يسبب الغمّ والكآبة، وعصّة في القلب وشعور بالضيق..

كما لو أن ثمة كائناً لا مرئياً، يشهق ويزفر ويتألم في كل لحظة. في كل نفَس. تيار من الهواء العابر، يصفع الآذان يختلط مع أنفاس الحياة ذاتها، مع مياه الآبار ومع دم القرية.

لماذا قريتنا حمراء؟ يتساءل جميع الأطفال المحظوظين بالخروج من القرية لزيارة قرى مجاورة. فيكتشفون اللون في مكان آخر، وينتبهون إلى أن قريتهم فقط وحيدة اللون، بينما تمتلئ قرى الجوار، بمشاهد متعددة، لوحة مطلية بلون واحد، تدرجات الأحمر للتعرف إلى الأشياء عبر التدرج اللوني والظل، بينما قرى الآخرين، أو القرى الأخرى، لوحات متعددة الألوان.

كل المواليد الجدد، يولدون في الأحمر، مصحوبين به، لا شيء في ذاكرتهم سوى هذا اللون. يعتقدون بأن الأحمر هو اللون الوحيد للأوراق والأغصان والأمكنة والحجارة والأرض، يعتقدون بأنه من المستحيل وجود أشجار غير حمراء، أو من مشتقات الأحمر وتدرجاته.

«لماذا نحيا في هذه القرية؟ ما الذي يجبرنا على تحمّل هذا المشهد الواحد، اللون الواحد؟». بدأ المراهقون بالتشكي والرفض: لقد مللنا هذا.. علينا مغادرة هذا اللون، يجب ترك هذه القرية». بدأوا يعارضون آباءهم، يتشاجرون معهم، رافضين هذا اللون الموحد: «ليس من العدل أن يوجد، في أمكنة أخرى، كل ذلك الثراء اللوني، بينما نحن نعيش في هذا الفقر المدقع من الألوان،

الأحمر.. ما هذا التسلط اللوني؟ الذي يلغي بقية الألوان؟».

انقسمت الطليعة الشابة، الجيل الجديد، بين قسمين، أحدهما مؤمن بضرورة البقاء والنضال مع الكبار من أجل التخلص من وحدة اللون وإعادة تعدد الألوان إلى القرية، والثاني الذي اقتنع بضرورة التخلي عن القرية وترك الآباء لمصيرهم، بينما يبحثون هم عن فرص أخرى للعيش في أماكن ملونة، إذ إنهم آمنوا باستحالة تغيير هذا الأحمر، إنه بمثابة تابو، مقدس.. لا يمكن المساس به أو تعديله. أي محاولة لاستجلاب لون آخر، ستجلب اللعنة على القرية، أو المزيد من اللعنات.

من ناحية أخرى، وبمرور الوقت، شاع اصطلاح أصبح مألوفاً للجميع، حين يغضب أحد من الآخر، يقول: «عليك لعنة الأحمر!». ثم راحوا يختزلون العبارة، حيث يشير الأحمر تلقائياً إلى اللعنة، فصارت العبارة اللاعنة «عليك الأحمر!».

بمرور الوقت، تحولت تلك القرية الصغيرة، الفقيرة، المعزولة والمنسية، إلى مكان مشهور، يؤمه السياح والأغراب، بل والباحثون، بسبب تميّزها الغامض، بسبب هذا الأحمر.

حتى الصحافيون، والسينمائيون، والأطباء، بل والسحرة، وكل الفنانين، ومن أصقاع بعيدة، بالطائرات والسيارات والقطارات.. جميعهم جاؤوا مندهشين بزيارة هذا المكان الغريب، الذي، وما أن يلجونه، حتى تتحول كل مقتنياتهم الملونة، ملابسهم، أغراضهم، لتصطبغ بلون المكان، الأحمر.. كله كله.. كله أحمر!

أصبحت القرية الحمراء وجهة مقدسة. كل ما فيها مقدس. حجارتها، أشجارها، ماؤها، كل ما فيها له مكانة مختلفة وخاصة.

من أجل الشفاء من أي مرض، يُنصح بشرب مياه القرية الحمراء. من أجل النساء العاقرات، يجب لمس الحجارة الحمراء في القرية الحمراء، والحمل مضمون. من أجل الزواج، اذهبوا إلى القرية الحمراء، ضحّوا بالخراف والنعاج على أرضها الحمراء، وستتحقق مآربكم أيها العزاب. من أجل النجاح في العمل، في الدراسة، من أجل التوفيق في السفر.. لتحقيق أي حلم، اذهبوا وانذروا في القرية الحمراء.. هناك، تتحقق جميع الأمنيات.

اختلطت الخرافات بالمخيلة بالرغبات.. وصار اسم القرية الحمراء بمثابة الأمل والرجاء. ولكن، لماذا هي حمراء؟

«كان يا ما كان، في قديم الزمان، في سالف العصر والأوان، كان ثمة صبية حسناء، تعيش مع والدتها في قصر معزول في الغابة المجاورة لقريتنا. كانت الأم جنية شريرة تأكل أولاد أهل الضيعة في الليل. ولم تكن ابنتها تعرف. كانت تترك الصبية وحدها وتذهب لتبحث عن طرائدها. كانت تنبّه ابنتها ألّا تفتح الباب لأحد في غيابها. لم يجرؤ أحد على الاقتراب من بيت الغولة، الجنية آكلة أطفال القرية. كانت البنت تشعر بالوحدة والحزن، وتتكلم مع العصافير والفراشات، وتحلم بأن ترى ذات يوم كائناً مثلها، شخصاً تتحدث إليه.. .ذات يوم، جاء صياد وسيم، غريب عن القرية، توغّل في الغابة، وفجأة وصل إلى القصر.. وبوغت به. حين دار الشاب حول القصر، وراح يتأمله، فقد عقله من الدهشة والفرح، إذ رأى صبية حسناء تنظر إليه من نافذة عليا في القصر.

وقع الصياد في غرام الصبية.. وهي هامت به.. وحين فتحت له الباب الكبير، الموصد بأقفال ثقيلة، واستسلمت لقبلاته بفرح، باغتتهما الغولة.. ما إن رأت الشاب يعانق ابنتها حتى انقضّت

عليه تريد أكله. توسلت الفتاة والدتها أن تبقيه على قيد الحياة، لكنها، وبلا رأفة ولا شفقة، التهمته حياً كما تأكل أرنباً أو عصفوراً.. قتلت الصبية نفسها أمام أمها، وسال دمها مختلطاً بدم حبيبها، وهكذا جرى شلال دم العاشقين من الغابة وصبغ القرية، ومنذ ذلك اليوم، صارت القرية حمراء».

«كان يا ما كان، في قديم الزمان، في سالف العصر والأوان، كان ثمة شاب وسيم، يتيم، يعزف الموسيقا. كان فقيراً، وحيداً، وتعيساً. ذات يوم، صادف في الغابة، صبية بالغة الحسن والجمال، فوقع في غرامها منذ النظرة الأولى، دون أن يعرف من تكون. كانت الفتاة ابنة الملك. ما أن عرف الملك أن ابنته عاشقة لذلك الموسيقي الفقير المعدم، حتى أرسل رجاله وذبحوه كما يذبحون الخروف. كانت الأميرة حزينة. فتحت يديها نحو السماء وقالت: يا رب، لتغطّى دماء حبيبي كل شيء. استجابت السماء لطلب العاشقة المفجوعة، ومنذ ذلك اليوم، صارت القرية حمراء».

«كان يا ما كان، في قديم الزمان، في سالف العصر والأوان، كان ثمة صبية اسمها سلطانة، ذبحها أهلها دون رحمة لأنها وقعت في الحب. أمطرت السماء طويلاً في تلك اللحظة، أمطرت السماء دماً.. صبغ الدم كل شيء.. لم يستطع أحد تنظيف المطر الأحمر عن الأشياء.. منذ ذلك اليوم، صارت القرية حمراء».

«كان يا ما كان، في قديم الزمان، في سالف العصر والأوان، كان ثمة شاب اسمه إبراهيم، عشق سلطانة، وكان العشق ممنوعاً في ذلك الزمان...

«كان يا ما كان، في قديم الزمان، في سالف العصر والأوان....»

«كان يا ما كان، في قديم الزمان...»

«كان يا ما كان...»

«كان...

«قالت سلطانة لإبراهيم...»

«قال إبراهيم لسلطانة..»

«لا تقتلوني.. بحق السماء».

«قال الشاب للأميرة..

«توسلت الصبية أمها الغولة..»

تعددت التفاسير، وتنوعت شروحات اللون الأحمر. كان لكل من الأهالي قصته التي يؤمن بها، سبباً للّون الأحمر. إلا أن العبرة الوحيدة الممكن استخراجها من كل تلك القصص المتنوعة كانت ذاتها: يجب تفادي الحب، كل المصائب سببها الحب.

«يعني كانت قريتنا مثل القرى الأخرى؟». يتساءل الأطفال المولودون في الأحمر «نعم»، كان الجواب قاطعاً.

«أي كان ثمة أخضر؟ وأصفر وأزرق..»، يتابع الأطفال تساؤلاتهم بدهشة، ويضيف الأهل: نعم، والأبيض والبرتقالي والزهري و..

«وما من طريقة لاستعادة تلك الألوان؟»، يتساءل الأطفال بقلق وشغف، حالمين برؤية ألوان أخرى.

«لا بد من فك اللعنة».

«اللعنة؟». يتساءل الأطفال مجددا رداً على أهلهم.

«هذا هو السؤال الكبير والصعب».. تتنهد الأمهات غالباً وهن يفكّرن، ويترك الآباء مجالس الصغار ضجراً من الردود العقيمة.. إذ لا حل، على القرية أن تحيا في لعنة الأحمر.

سمت بعض النسوة مولوداتهن سلطانة، والصبيان إبراهيم.. في محاولةً لتخفيف اللعنة. ومع الوقت أيضاً، صارت اسم البرية الشائع، برية سلطانة وإبراهيم.

العروسات المتزوجات، قبل الزواج وبعده، كن يطرزن ملابسهن الداخلية، القمصان الأنيقة المثيرة، بالأحرف الأولى من اسمي العاشقين، السين والألف.

كانت تلك الأمارة «القلب المرسوم فيه هذين الحرفين» تدل على الإيمان بالحب، واستجلابه. نراها في زوايا الستائر، أغطية أسرّة العرسان، وجوه المخدات، وجوه الفِراش و زوايا اللحاف.. كان اسما سلطانة وإبراهيم جالبين للحب، ولكن، شريطة الزواج. إذ لا حب دون تشريع، والتشريع الوحيد للحب في ذلك الزمن، هو الزواج.

ما بين استرضاء روح سلطانة، والتضامن النسوي، كانت بعضهن يكتفين بتطريز اسم سلطانة، أو حرف السين، لنراه موشى بالخرز الأحمر، حيث لا لون آخر، يبرق ويلمع على القماش الشفاف.

كانت النساء يتحدثن في ما بينهن عن سلطانة، بل وراحت

بعضهن تروي ما نقلته ذاكرتها، أو لسان والدتها، وقد سمعتها متلصصة، عن ليلة الياسمين، حيث كثرت تفسيرات صبحية الياسمين، حين لم يرغب الأزواج بمغادرة أسرّتهم، ولا العزاب حتى. الأولون، الأزواج والزوجات، مستمتعون بالعشق الزوجي، والآخرون، العزاب والعازبات، مسترخون في أحلام العشق وتصوراته.

ـ في ذلك الصباح أخذني كما لم يفعل ولا حتى في ليلة زفافي.

ـ كانت لدي طاقة خرافية لممارسة الحب.. ولجتها عشرات المرات في ذلك الصباح.

كثرت أقاويل الأهالي عن تحريض الياسمين على الشهوة.. ولكن ظل ذلك الحديث دوماً محصوراً بين الكبار والمتزوجين، وحرص الجميع على تجنيب أولادهم لعنة الحب، أو معرفته، أو السماع به، أو التشجيع عليه.

ظل الحب محرماً يجب تجنبه، تركه بعيداً عن حياتنا.

أصبحت بعض النساء مهووسات بحماية أولادهن من الحب. فرحن يزرن الساحرات و«النفاثات في العقد»، فيتزودن بالأحجبة والرقى المانعة للحب، والمحصّنة من أثره، والحامية من الوقوع فيه.

كانت بعض المؤمنات تنهين صلاتهن بالدعاء لبناتهن على الأخص وأولادهن على العموم بأن تحميهم السماء من الوقوع في العشق.

شاعت الكثير من الأدعية، الحجابات.. التي تزيل أثر الحب، وتقي

من النظرة الأولى، النظرة التي تورط متلقّيها، وترميه في طريق الحب.

ومما شاع أيضاً، ذلك الكرب والغمّ الذي دُعي بالكآبة الحمراء.

صارت الكآبة موضة في ذلك المكان. موضة أو ظاهرة لا يعرفها سوى أبناء ذلك المكان، وبناته خاصة، أكثر من عانين من تلك الكآبة الحمراء.

وتتجلى أعراض تلك الظاهرة، بوقوف الصبايا طويلاً خلف النوافذ، جالسات أمام مصاطب البيوت، على الشرفات.. شاردات، حزينات، حالمات.. غائبات عن الواقع، لا رغبة لديهن في شيء، لا شهية نحو الطعام، لا الفرح، لا الضحك، لا الخروج، لا اللقاء.. ينظرن إلى الفتية الوسيمين، الفاتنين، تتقطّع قلوبهن رغبة في العشق، ويكتمنه حتى ما يشبه الحداد.

أصبح الصبية أكثر ميلاً إلى العنف والشراسة. توحّشت طباعهم. كانوا يفتقدون هذا الحب. ينظرون بتوجس إلى الصبايا العابرات أمامهم، تقتلهم الرغبة المكتومة، ويحرقهم الشوق الممنوع التعبير عنه أو حتى الإحساس به.

الأحمر ملك القرية.

صارت القرية مكاناً خصبا للفن والإبداع.

تفتّقت الكثير من المواهب.. صبايا يرسمن لوحات وأشكالاً غرائبية، جديدة، مدهشة، حتى ولو كان اللون الوحيد الموجود هو الأحمر. بينما مال الصبية إلى ممارسة الرياضيات العنيفة، ويفضّلون

الذهاب إلى القنص والصيد، للتخلص من ضغط الرغبة في الحب.

حين يكون الحب غائباً، تصبح الحياة دون دافع، دون طعم، دون هدف.

أن تعيش دون حب، كما لو أنك تلتهم الكاتو أو الحلوى دون سكر.. يباس، جفاف، قحل.. صحراء خالية.. حديقة دون ماء أو أشجار أو ورود.. كحديقة منزل شريف، والد سلطانة. تحولت إلى خرابة تلوذ فيها الحشرات والجرذان والفئران.. خرابة مخيفة تسكنها الأشباح والشياطين.

هذا المشهد الأحمر الممتد بلا نهاية، الأحمر الذي في كل مكان، الأحمر المسبب لليأس والغم والحزن القاتل. الذي لا يوحي سوى بالعزلة والفقدان.. الداعي إلى الموت أحياناً.

علت الجدران والحواجز بين الصبيان والصبايا. لم يتمكن أحد من الطرفين من التعبير عن مشاعره للآخر.

كل منهم، منهن، أخفى مشاعره وطمرها في عمق العمق كأنها خطيئة جسيمة. كانت النظرات تلتقي أحياناً، تتقاطع، تتشابك.. ولكن سرعان ما يدير الناظران رأسيهما خشية الهوى. كان الموقف الوحيد هو الهروب من الحب، تجنباً لمزيد من اللعنة.

كان هاجس الأمهات هو تحصين أولادهن من الحب. من أثر الحب، من لعنة الحب. هكذا فعلت الأمهات، اختصصن في الحجابات السرية، السحرية، الأدعية، الوصفات العجائبية، الأعشاب أحياناً.. تتبع كل ما سمعت عنه وبه، في أنه يساعد على تحصين الأولاد من الحب، وهكذا فعلت أم حمزة، عائشة،

التي عرفت بمبالغتها وهوسها، حتى يمكن تسمية أعراض هاجسها بـ عصاب منع الحب. كانت تتبع ابنها وتراقبه وتلاحقه حتى في أحلامه، لحمايته من الحب.

في منزل عائشة، والدة حمزة، عشرات الزوايا التي تختبئ فيها الأحجبة. تحشر عائشة الكتابات والطلاسم السحرية داخل فتحات الجدران، تبخّر البيت عدة مرات.. كان شغلها الشاغل، من لحظة استيقاظها حتى نومها، وفي أحلامها، أو ربما كوابيسها، لديها هاجس واحد فقط، هدف تركز عليه: إبعاد شبح الحب عن ولدها.

منذ طفولته الباكرة، حتى قبل أن يتعلم الكلام، روت عائشة لولدها قصص الحب المرعبة.. كررت أمامه حكاية قتل سلطانة، صديقتها الغالية، التي كانت قريبة إليها كروحها.. كانت تتقاسم معها الأغاني والطعام والحكايا، ثم رأت رأسها مبتوراً، مفصولاً عن الجسد، كأنه رأس دمية من قماش أو ورق، لا رأس إنسانة من لحم ودم.. دم كثير من الدم.. رأت بعينيها ذلك الدم، ينقّط من رأس صديقتها، لا من رأس خروف أو بقرة معلق عند الجزّار...

حين رأت عائشة رأس صديقتها سلطانة معلّقاً على بوابة منزل أبويها، شلّها الرعب.. عانت من غثيانات وكوابيس وهذيانات قتل سلطانة. رفضت الزواج، خافت من ممارسة الحب، حتى ذلك المشرع باسم الزواج، وقرفت من الجسد، جسد الآخر الذي يجلب الكارثة والقتل.

حكت طويلاً لولدها عن تلك الصبية الفاتنة، عن ألوان ملابسها،

عن ضحكاتها، عن ذكائها، عن قدراتها.. «لا يمكنني أن أصف لك الرعب الذي رأيته.. كانت سلطانة مذبوحة كالحمل، كالجدي.. كأنها خروف.. كانت الدماء تنقط من عنقها المبتورة.. حلمت بجسدها المقطوع الرأس ليالي طويلة، وكنت أفيق على الغثيان.. منذ ذلك اليوم، الذي رأيت فيه جسد صديقتي مسلوخاً من رأسه، وأنا أصلي للسماء لحماية من أحب من كارثة الحب. الحب خطورة جسيمة يا ولدي، لا يجلب إلا الشقاء والعذاب، والموت.

تخيل يا صغيري أن تحب فتاة ما، نعم ستكون سعيداً أثناء الحب، ولكن تخيل دوماً جسد حبيبتك معلقاً، مقطوع الرأس، تنز منه الدماء، ورأسها متدحرج في مكان ما، عيناها تحملقان بقهر وبتوسل من أجل العيش.. الحب جميل ربما، لكن الحياة أهم من الحب.. الحب الذي يجلب الموت المرعب لا نريده.. كانت تلاحقه بالقصص إلى أن بدأ يصاب بالغثيان، كلما سمع عن الحب.

من ناحية أخرى، حاول والد حمزة تعليم ابنه قوة الحب. كان ينتقد زوجته مؤكداً لابنه أهمية الحب «إن لم نحب، فسوف تفقد الحياة قيمتها، الحياة دون حب ليست حياة بشرية، أهم ما في الإنسان قدرته على الحب، وإلا نتحول إلى وحوش.. «يجب أن نحب، أن نحب كثيراً حتى نفكّ لعنة القرية.. القرية تحتاج إلى الحب، وليس إلى نكران هذا الحب..».

رغم خوف عائشة من الحب وممارسته الجسدية.. تزوجت حسين، لأنها كانت تشعر بالأمان معه، وكانت تتقاسم معه ذلك الحزن العميق على مصير سلطانة، التي عرفها حسين أيضاً، وأحبها

كأنها أخته.. رأت عائشة في حسين ملاذاً وصدراً آمنا تطمئن إليه. ورأت في زواجها منه، مهرباً من ضغوطات أهلها لتزويجها من أي رجل يتقدم إليها، وكان هذا أقصى رعبها، ترتجف قدماها من الخوف، وتتقيأ، كلما تخيلت أن رجلاً ما، يُخلعها ملابسها، ويدس شيئه بين ساقيها.. كانت تخاف من الجنس، ومن الرجال، لهذا أمِنت حسين على نفسها، إلا أنها اشترطت عليه أن يتزوجا، دون ممارسة الجنس، ووافق حسين، لأنه كان يحبها، وكان في أعماقه، متأكداً، أنها في لحظة انسجام ما، في لحظة عاطفية قوية، سوف تستسلم عائشة لرغباتها، وتمنحه جسدها ليتلذذ به، وتتلذذ معه، في عيش الحب الحقيقي. تأخرت تلك اللحظة شهوراً طويلة، إلا أنه، تمكّن من أخذها إلى أرض اللذة، ذات ليلة، فحملت وأنجبت حمزة.

عاش الصبي تناقضات الحب، بين تخويف أمه، وتشجيع والده..

ـ الحب جسد حبيبة معلق كالخروف، مذبوح، ينقّط دماً ولعنة أبدية.

ـ الحب هو الخلاص، أحب قدر استطاعتك، حبكم أيها الأبناء، سينقذنا من لعنة ما فعله بنا آباؤنا.

كانت آراء الوالدين ومقولاتهما متضاربة.

عانى حمزة، كأغلب أبناء جيله، من الكآبة العميقة، كآبة يجهل سببها، ولكن الأب فسرها بـ غياب الحب.. الحاجة إلى الحب.

برتقالي

حين كانت *** تلعب مع جديها «جعدي»، فوجئت بخيط سائل، دافئ، بين ساقيها.

خافت الصبية، من أين يأتي هذا الدم؟ نهضت ورفعت تنورتها متتبّعة خيط الدم حتى منبعه.

الألم شديد.. مغص عنيف لم تشعر به الصغيرة من قبل. شدة الوجع جعلتها تتمرّغ في الأرض متلوّية مرتجفة ناسية دمها النازف.

وقف جديها المخلص منتفضاً متأملاً أوجاعها عاجزاً عن التصرف. راح يحملق بها متألماً وهو يراها تتلوى من الوجع وتتمرغ في التراب.

مضت ساعات وهي تبكي من الوجع، كأن سكاكين تقطّع

أحشاءها، والدم يسيل ويجري حافراً طريقه في البرية. نهضت الصبية وقد هدأت أوجاعها، ولكن الدم لا يزال ينزف. اندهشت لِما رأته. لم تصدق. الأحمر الذي لم يفارق ذاكرتها ولم تعرف غيره، تحول إلى لون آخر.. أينما مرّ دمها، غيّر اللون الأحمر، فأصبح برتقالياً! (بسبب جهلها للألوان، فليست هي من أطلق وصف اللون البرتقالي).

ليس هذا فحسب.. بل راحت الأمكنة كلها تتحرر من الأحمر.. كل شيء، العشب، السماء، الشمس، كل ما كان أحمر، أصبح برتقالياً.

كما لو أن ذلك الأحمر، وما أن اندلق من جوفها، حتى حوّل الأحمر المعتاد إلى برتقالي. ربما كانت هذه الدرجة الأولى من التغيير، الأحمر في طريقه إلى الزوال، عبر البرتقالي أولاً كأنه في طريقه إلى الزوال!

دون شك.. ثمة احتمال كبير الآن لخروج القرية من لعنة الأحمر.

من بعيد، في القرية، رأى الأهالي اللون البرتقالي يلتمع في البرية الحمراء.. رأوه يقترب قليلاً من القرية.

في اللحظة ذاتها، كانت عائشة تزداد إصرارا لممانعة الحب، هذه هي رسالتها التي تحيا من أجلها. كما لو أنها أدركت دلالة البرتقالي، وثبتّت كل إمكاناتها لمنع الكارثة من أن تتجدد. تنهّدت و قالت في سرها: ما صدقنا أن بدأ الأحمر بالتخفف.. لن أسمح بعودته!.

من حسن الحظ، ربما، أن عائشة ليست المرأة الوحيدة في القرية. وإلّا لانغلقت القرية أجيالاً طويلة، ممنوعة من الحب، محرومة منه. كان

ثمة نساء أخريات إذن، نذكرهن دون شك، زهرة وسميرة مثلاً.

تزوجت زهرة من فرهاد. ولكنها اختلفت جذرياً عن عائشة. فقد أسست مع زوجها مركزاً اجتماعياً وحقوقياً للدفاع عن النساء. ليس من المفاجئ طبعاً أن يحمل المركز اسم صديقتها المقتولة «سلطانة». كان (مركز سلطانة للدفاع عن حقوق المرأة) مرجعاً غنياً بالمعلومات والوثائق المتعلقة بجرائم العنف الواقعة على المرأة، خاصة جريمة الشرف.

سميرة، من جانبها، أسست مؤسسة ثقافية فنية لمساندة النساء. حتى وإن لم تكن قد تعلمت في المدارس، إلا أنها اهتمت بالفنون والأشغال اليدوية لفتيات القرية. نذرت حياتها للفن. آمنت دوماً أن الفن هو المرأة. الفن امرأة! كانت تكرر.

رفضت سميرة الزواج، مدافعة عن عذريتها. لم تتقبل أن يلجها رجل، ويحصل على عذريتها. الرجال وجدوا لتمزيق عذريتنا، الرجال رمز العنف، كانت تقول سميرة.

بعد مقتل سلطانة، كانت سميرة تستيقظ مذعورة وقد وضعت يديها بقوة بين ساقيها مخفية عضوها تصرخ: لا تقتلوني لا تقتلوني، لم يمسه أحد!

كثيراً ما حلمتْ برجال مشوّهين، قبيحين، يغتصبونها، لا بأعضائهم الجنسية، بل بإيلاج قضيب معدني أو أداة حادة أو خشبية يولجونها فيها، في كل حلم، أو كابوس، تتمزق عذرية سميرة ويتطاير الدم في كل مكان ليثير فضيحة: «ليست عذراء. تسمع همس النساء، وتستيقظ مرعوبة لأنهم يقتلونها، حيث فقدت عذريتها.

كانت زهرة تقول، بين الجد والمزاح: لو أن ثمة محللة نفسية

مشهورة كشهرة الرجال «فرويد وغيره»، لا بد أنها ستخترع لنا مرض الفوبيا النسوية: العذرية الحرة «تحرير العذرية». حيث تحولت العذرية إلى «فوبيا» لدى النساء، خوفاً من فقدانها قبل الزواج. إنها رُهاب، كما رُهاب الأماكن المرتفعة، أو رُهاب الأماكن الضيقة.. رُهاب فقدان العذرية، الذي يتفرّع إلى رهابات متعددة، رُهاب فقدان العذرية قبل الزواج، أي دون زواج، رُهاب فقدان العذرية أثناء الزواج، رُهاب عدم فقدان العذرية، وتعذّر ثقب الغشاء، أثناء الزواج... أف.. كم تحتاج العلوم إلى إعادة نظر في قواعدها التي قامت دوماً، وفق مقاييس الرجال ونزعاتهم ونرجسيتهم!

اخترع الرجال الأفكار، قسموا العالم ونظّروا فيه وأفسدوه وحللوه وشرحوه وفقاً لقضيبهم. القضيب مركز الفكر العالمي. يجب أن تأتي امرأة لتقلب الفكر العالمي وتخرب بنية الفكر القضيبية وتصحّح فهم الكون عبر جسد المرأة ونظرتها. يجب إعادة النظر إلى العالم من وجهة نظر الفرج.

إن النظرة المسيطرة على الفكر، هي النظرة القضيبية، أو الموقف القضيبي من العالم. بمعنى أن العضوية الذكورية (العضو المذكر) هو صاحب التأثير على الفكر، بينما غابت النظرة الفرجية، أو الموقف الفرجي من العالم، حيث التسلط الذكوري، بسبب التسلط القضيبي، نحّى المرأة وعزلها، بسبب بنيتها الجسدية، أي بسبب «فرجها».

من الممكن، تقول زهرة، فصل عضو الذكر، أو كلمة «قضيب» عن دلالتها الجنسية، والتحدث فكرياً ونقدياً، بمعزل عن الإيحاء الجنسي، لكن هذا يصعب مع المرأة، فكأن جسدها، وعضوها، مادة جاهزة دوماً، للإثارة الجنسية، غير مؤهل، عضوها، للاستخدام

النقدي البحت. من هنا، طالبت عضوات الجمعية بالبحث والاجتهاد، للخروج بتسمية حيادية لعضو المرأة، بحيث لا يحمل هذا المسمّى دلالات جنسية فحسب، كما «القضيب» الذكري، الذي يحشر تأثيره في كل النظريات، التي صنعها الرجال!

إمبراطورية الذكور تحكم العالم، يجب وقف هذا. يجب تصحيح أخطاء الرجال. حيث قاد الرجال العالم مغيبين النساء.

كتبت سميرة قصائد صادمة. مخترعة قواعد لغوية ونحوية مختلفة، مؤمنة بأن اللغة السائدة هي من صنع الرجال. الألفاظ المذكرة والمؤنثة تقسيمات ذكورية. يجب إعادة تصحيح اللغة، من وجهة نظر نسوية. إنها تقول مثلاً: «لقد جاءت المرأة، لتعلن تغيّر الزمن والأحكام والقواعد والمعارف والتعريفات والتصنيفات.. كل شيء تم في غياب المرأة، كل شي صار وفق الرجل».

من قصائدها:

في تابوت القلب وضعتك، وفي نهر القلب وضعت التابوت[١١]

أو:

كواكبٌ تمزّق حرير العناكب.. هل القمر فقط لينعكس في البحيرة ليلاً؟[١٢]

أما حمزة، فهو أشدّ ميلاً وقرباً إلى سميرة من غيرها، حتى أكثر

---

(١١) الشاعر اليمني فتحي أبو النصر.

(١٢) الشاعرة السورية آخين ولات.

من أمه. يعشق كتابتها، مولع بعزفها على العود.

يقول حمزة بحماسة، تلمع عيناه ببريق إعجاب: إنها رائعة! كيف يمكنها فعل هذا! إنها موهوبة بشكل مدهش. كما لو ثمة آلهة تساعدها وهي تعزف، بل وتعزف عنها. يا للسماء، إن لم يكن هذا هو الفن، فماذا يمكنه أن يكون؟

أخذ حمزة الكثير من كلمات قصائدها في أعماله من باب التناص. و هي بدورها، عاملته باستثناء، وقبلته كرجل، قائلة: ثمة استثناء دوماً، حمزة استثناء الرجال.

اليوم، تبلغ الخامسة عشرة، يا للفرح!

لم تتمكن من النوم ليلة البارحة. إنها تنتظر هذا اليوم منذ سنوات. أخيراً ستتمكن من فتح الصندوق. السر الوحيد الذي أخفته عن والدها، مع أنهما يتقاسمان كل شيء ويعرف كل منهما كل شيء عن الآخر. رغبت ليلة البارحة بالذهاب، والجلوس إلى جوار الصندوق، حتى شروق الشمس.. قال والدها إن سلطانة وضعتها بعد ثلاث ساعات من شروق الشمس.. كانت تعدّ الساعات لتحدد بدقة ساعة بلوغها سن الخامسة عشرة.. كم انتابتها الرغبة في الخروج ليلاً وانتظار الصباح في جوار الصندوق، إلا أنها ضبطت رغبتها، حتى لا تلفت نظر والدها. وأخيراً، يا للفرح، ها هو الصباح.

منذ سنوات وهي تعدّ الأيام على أصابعها، وتشير إلى مرور النهار في كل ليلة، وهي تشطب اليوم من الدفتر الذي دونت فيه الأيام والشهور والسنوات، لمعرفة اليوم الذي تبلغ فيه سنتها الخامسة عشرة بدقة.. وأخيراً، حل التاريخ المنتظر، حانت اللحظة.

كم هي المرات التي تسللت فيها خفية عن والدها للتأكد من وجود الصندوق وسلامته. كم داعبته بيدها وأزاحت عنه الغبار متحدثة إليه. كم خافت من فقدانه أو اختفائه.. طالما حلمت بأنه اختفى. تستيقظ مذعورة، فيهرع إبراهيم نحوها، يطمئنها بوجوده معها، دون أن يفهم قلق ابنته أو أسباب كوابيسها.

ها هو الصباح المنتظر. إنها الآن ابنة الخمس عشرة سنة. ويحق لها فتح الصندوق.

ها هي تسبح في البرتقالي.. تمشط شعرها بعناية. ترتدي ملابس نظيفة وجديدة. تنثر زخات من العطر على عنقها وكتفيها.. هذه هي المرة الأولى التي تتعطّر فيها. لم تمس هذه الزجاجة يوماً. اليوم فقط، أحست بفرح مختلف الطعم.. ثمة شيء جديد من حياتها يستحق الاحتفاء به. لقد استخدمت زجاجة العطر التي تركتها تميمة خلفها، كانت تفتحها وتشمّها، لكنها لم تستعملها.

إنها تستخدم جميع أغراض تميمة، مشطها، مرآتها، وربما قريباً تستعمل ملابسها، وقد بدأ جسمها ينمو قليلاً، وما هي إلا أشهر قليلة، أو سنوات قليلة جداً، حتى يصير جسمها أكبر، وتستطيع ارتداء بعض ملابس تميمة.

كان إبراهيم، من وقت لآخر، يأخذ الملابس المتآكلة، بين ملابس تميمة، يصغرها، ويخيطها على مقاس الصغيرة.. بينما يترك الملابس الأقل عتقاً، إلى أن تكبر الصغيرة، فترتديها دونما تعديل.

ها قد وصلت.. أخيراً. مرت داخل النفق، ووصلت هنا، أمام الصندوق. إنهم ثلاثتهم هنا، ***** وجديها، الذي لا يفارقها، والصندوق.

كم تخيلت محتوياته.

كانت تعتقد بأنها تمتلك مخيلة نشطة.. ولكن ما أمامها يتجاوز مخيلتها. إنه أكبر من مخيلة، من حلم.. أتراها تحلم؟

كما لو أنها قصة خرافية.. ما تراه لا يمكن تصديقه. هذا ليس مجرد صندوق، بل عالم كامل.

إنه قصر.. غرفة مغلقة على شكل صندوق.

حياة كاملة تجري هنا، داخل هذا الصندوق.. شكراً تميمة!

قابعان كلاهما، *** وجعدي قرب الصندوق.

الزمن يسير لكن ليس هنا.

هنا الزمن واقف. العالم منعزل في هذا الركن منه. لا يمشي الزمن هنا.

هنا هؤلاء الثلاثة معاً، خارج الزمن، *** وجعدي والصندوق.

هنا الزمن معلّق!

كلما مسّت أصابعها غرضاً من الصندوق شهقت من الدهشة. كلما شهقت التمعت عينا جعدي بالدهشة.

كان عالم من اللون يقبع في الصندوق.. ألوان لا تعرف أسماءها ولا أوصافها، ولا يمكنها تفسيرها.. ألوان متفاوتة لم ترها يوماً.

هنا.. في هذا الصندوق يمكننا تخيل كل ما اعتمدت عليه تميمة

في صياغة عوالمها السحرية. كل الوثائق والمراجع والتفاصيل والوصفات السحرية التي اتبعتها تميمة لتحسين وضع العالم. بالرغم من إمكاناتها السحرية وطاقاتها الفوقتحتية، استخدمت أحياناً وسائط واقعية مرئية، أرضية!

المشكلة أنهما، لا *** ولا جعدي، يمكنهما معرفة أسماء تلك الأشياء، ولا حتى معرفة طريقة أو مناسبة أو سبب أو كيفية استخدامها.

ثمة قوارير مملوءة بسوائل متعددة الألوان والروائح. ليست عطوراً دون شك، ولكن *** لا تعرف كنهها، ولا يمكنها فتحها أو استعمالها دون معرفة أوجه استخدامها، خشية أن تكون لها مضار يصعب إزالة آثارها.

أشياء كثيرة متراكمة أمام الصبية لا تفقه عنها شيئاً. خاصة هذا المغلف الذهبي الكبير الذي يصعب فتحه. حاولت *** فتحه، وحين سحبته بقوة سقطت على ظهرها. أعادت المحاولة مرات ومرات عبثاً، من المحال فتح ذلك المغلف. ولما ملّت وسئمت رمته من وجهها، فانتبهت إلى وجود تلك العلبة التي أحسّت بها فوراً كعلبة سحرية.

حين أبصرت الصبية تلك العلبة، ومع أنها لم تنتهِ من رؤية محتويات الصندوق كلها بعد، نسيت أمر الصندوق.

لقد سمعت *** كثيراً عن الألوان، لكنها لم تعرفها ولم تشاهدها.

في داخل العلبة، كان ثمة مجموعة علب. علب ألوان... فوق

كل علبة، تم تدوين اسم اللون: أحمر / أعرفه قالت ***. أصفر/ يا للبراعة، أزرق/ هه مدهش، أخضر/ يا للسماء، ساحر، بنفسجي/بارع، تمددت *** على بطنها، تتفحص الألوان، تكرر اسم كل لون، تحاول اختيار الأجمل.. تصُف الألوان أمامها، تسلسلها وفق جمالها، تعيد الترتيب.. تعجز عن إيجاد الصيغة اللونية الأجمل.

جديها جاثم قربها.. يا له من مشهد.. مشهد ملوّن كما لم يحدث منذ سنوات.

«هيا بنا».. صرخت سعيدة «تعال نلوّن العالم!».

فتّشت بكثير من الفوضى والعجلة، عما يساعدها في استخراج الألوان من العلب، فعثرت، رغم الفوضى الهائلة، وتراكم الأغراض فوق بعضها، على ريشة كبيرة.. ضحكت سعيدة، متأكدة أن هذا الشيء الذي لم تره يوماً، سيساعدها على وضع الطلاء فوق الأشياء التي تريد تلوينها.

تركت الصندوق مفتوحاً.. ثمة أغراض بداخله لم ترها بعد، ثمة أغراض متناثرة على الأرض لم ترتّبها.. تركت المكان يضجّ بالفوضى وركضت طائرة من الفرح، حاملة علب الألوان، مقررة تغيير العالم.. تلوينه.

أول مكان تريد تغييره، هو المكان الذي تسكن فيه، الكوخ.

كان إبراهيم غائباً، كما العادة، حيث يختفي أغلب الوقت للكتابة والتأمل، مطمئناً إلى صغيرته، المحمية من أذى البشر.

فتحت علب الألوان، وبدأت بالطلاء.. أصفر «كانت تنطق أسماء الألوان لتتقنها»، أخضر.. بنفسجي، أزرق..

حين وصل إبراهيم، تجمد أمام المشهد المدهش.. البيت ملوّن، كيف حصل هذا؟

من الصعب وصف حالة الجدار، أو وصف ما رُسم عليه. سوق، بازار، أو ربما مخزن سوريالي «طاولة تشريح جانب مقص خياطة»[١٣]، بل تناقضات أكثر.. عناصر متنافرة، شمس زرقاء، شجرة بيضاء، عصافير وردية، فراشات سوداء، سماء خضراء، مهرجان لوني مختلف الدلالات، فهي لم ترَ يوماً لون الشمس أو الشجر أو العصافير.. لم ترَ سوى الأحمر يصبغ الأشياء.. ولم تكن لديها أدنى فكرة عن اللون الأصلي، الأولي، لهذه الأشياء. رسمت لوحة طبيعية على الجدار الأول: شمس، سماء، جدول ماء، شجرة، عصافير... وعلى الجدار الثاني رسمت الكوخ، مشهد خارجي له، الباب والسقف.. رسمته باللون البنفسجي «لا ننسى جهلها باللون الأساسي للكوخ؟»، وعلى الجدار الثالث رسمت والدها، رسمت نفسها، وجديَها.. والدها رسمته باللون الأخضر، رسمت نفسها باللون الأزرق، وجديها اختارت له اللون الأصفر..

حين دخل إبراهيم، ورأى الجدران الثلاثة، اندهش كما لم يحصل له منذ سنوات، حيث فقد الدهشة، فقد جميع الانفعالات وتجمدت انطباعاته.. «ما هذا؟ كيف فعلتِ هذا؟». هو أيضاً، إبراهيم، اعتادت عيناه الأحمر الثابت منذ سنوات. ارتبك أمام

---

(١٣) عبارة أندريه بروتون الشهيرة.

المشهد، الألوان أولاً، وانزياحها عن مدلولاتها ثانياً.. السماء الخضراء وجدول الماء البرتقالي.. وقف إبراهيم للحظات ليستوعب المشهد.. ولكن، من أين جاءت هذه الألوان؟ وكيف حافظت على «لونها»، دون أن تنصبغ، كما كل شيء، بالأحمر؟

ـ ما رأيك؟ أتعجبك؟ سألت *** سعيدة.

كما لو كان نائماً طيلة تلك السنوات، منذ دفن سلطانة، وأفاق للتو. أعاده مشهد الجدران الملونة نحو الخلف، منتبهاً لنفسه، مسترجعاً الزمن الذي عاشه مع سلطانة، حيث كانت الحياة جميلة وملونة.. ملونة بأصول اللون، كل لون في مكانه، وليس كهذا التخريب اللوني.. تقلبت مشاعر إبراهيم بين الدهشة والفرح.. تخريب لوني، لكنه مبهج للبصر.

ارتخت ساقاه، وقبع جالساً متأملاً.. تدفقت الأفكار والمشاعر والانفعالات بقوة.. رغب بالكتابة.. كما لو أنها فهمته، وهي التي لم ترَ بشراً غيره، صارت تقرأ رغباته، أسرعت بإحضار أوراق يدون عليها.

الزمن المستعاد.. هكذا شعر إبراهيم.. شم رائحة ذلك الزمن.. انتبه بغتة، إلى أن ابتسامة *** وبريق عينيها في لحظات الفرح، تشبه كثيراً ابتسامة سلطانها وطريقة فرحها. لماذا لم ينتبه من قبل، ألأنه كان غائب الذهن، حاضراً بجسده فقط، أم أن ابنته لم تشعر بالفرح من قبل؟

امتلأ بانفعالات قوية، صاخبة، كما لو أنه شمّ رائحة سلطانة في المكان.. كما لو أنه رآها تضحك، وتتقافز حوله كالفراشة، تماماً كما كانت تفعل، وهما عائدان من طريق المدرسة.. تتقافز أمامه،

ويسرع للحاق بها، ثم يقبض عليها ويمسك بها من خاصرتها في ذلك الممر الضيق حيث يخيم عليهما الياسمين..

أُصيب بلوثة اللون. سُكْر اللون. هذيان اللون. المشهد بديع، غريب، عجائبي.. الرجل الأخضر أمامه على الجدار، الصبية الزرقاء.. شيء يصيب العقل باللوثة. أكثر مما هو مضروب!

نظر إبراهيم بغتة إلى الصغيرة. رأت في عينيه نظرة جديها ذاتها. نظرة ملتمعة بالحب والتعاطف، وعدم الفهم. النظرة التي كانت تراها في عيني جعدي، الذي يذكرها بأنه «حيوان» رغم صداقتهما، وأنه محدود الفهم والتعبير، وليس مثلها، قادر على فهم كل شيء.

ـ أبي، أنت بخير؟

ـ..

ـ ماذا أصابك؟

ـ مممم لا بأس، لا بأس.. راح يتمتم.

ـ ما بك؟

ـ ما هذا؟

ـ الجدران؟

ـ فوقها.

ـ الألوان؟

ـ أنتِ فعلت هذا؟

ـ أجل.

ـ كيف؟

ـ إنها علب تميمة.

ـ من تميمة؟

ـ نسيتها؟ كم حدثتني عنها.. أمّ المرج الأخضر.. أمّ البرية..

ـ ولكن؟

ـ ماذا؟

ـ كيف وجدت هذا؟

أحضرت الصبية إحدى العلب وناولتها لأبيها. قرأ فوقها «أخضر». وأضافت شارحة:

ـ توجد مجموعة علب مثل هذه، كل واحدة بلون مختلف.

ـ أين عثرتِ عليها.

ـ في الصندوق.

صمت إبراهيم، فأضافت

ـ ترى أبي، هكذا يمكننا إعادة تلوين العالم.

تأمل إبراهيم تفاصيل الرسومات.. انتبه إلى المراكب داخل جدول الماء، ملابس البحارة، ملابس الفتيات.. كل هذا المهرجان اللوني المنزاح عن أصله اللوني.

نظر إليها بغتة كأنه كان نائماً وأفاق:

ـ هل أنت مؤمنة حقاً بقدرتك على تلوين العالم؟

ـ نعم، انظر، الألوان لم تتغير.. غطت اللون القديم (لا تزال تجهل اسم اللون البرتقالي).. أي أنها ثابتة.. يمكننا إذن تغيير العالم.

ـ ولكن العالم هو أكبر من هذا الكوخ والبرية، أنت لونت الكوخ، فهل يمكنك تلوين القرية، والبرية كلها.. هل تستطيعين بعلبة لون واحدة، طلاء البرية البرتقالية، وتحويلها إلى خضراء!

ـ أنت تراها علبة طلاء واحدة، ولكنها لا تنفد.. كلما استهلكتُ من الألوان، نبعتْ من جديد.. إنها علب سحرية يا أبي، أنا متأكدة أن تميمة تركتها، لتكفي لطلاء العالم.. العالم كله، كله كله.. كانت متمسكة بكلمة «العالم»، دون أن تعرف دلالاتها، ربما عنت البرية.. ربما كانت تتصور بأن تبدأ بطلاء كل العشب الأحمر في البرية.. أتبدأ بها عشبة عشبة، أو تدلق الطلاء الذي ينبع كلما أوشكت العلبة على النفاد؟ وإن لونتها، البرية، فأي لون تختار لها؟ سألت والدها بقلق:

ـ بأي لون يمكنني تلوين هذه البرية الحمراء؟ أقصد هذا اللون الذي تغير من الأحمر، ما هذا اللون أبي، ماذا نسميه؟

ركضت نحو علب الألوان، مفتشة عن لون الطلاء الذي يشبه لون البرية الحالي، لتعثر على اسمه، وصرخت بفرح من يكتشف الجواب:

ـ برتقالي!

انتبه إبراهيم بغتة إلى أن الأحمر تحول منذ فترة إلى برتقالي، دون أن يهتم بذلك.

نظرت إلى البرتقالي الممتد، والذي توقف عند حدود القرية. انتبهت إلى تلك البيوت البعيدة، حيث لا يزال كل شيء هناك أحمر. وكان والدها يشرح لها كلما سألته عن تلك البيوت الكثيرة: «هناك تقع القرية، حين تكبرين أسمح لك بالذهاب، إنها مكان خطر على الصغيرات، خطر خاصة على البنات!».

حلمت ⁂ مطولاً بالقرية وما فيها.. لم تستطع مخيلتها أن تصوّر لها الخطر.. ولم تعرف ماذا يوجد هناك، بل رغبت دوماً بالذهاب، وانتظرت أن تصبح كبيرة، لتفعل.

كمن اكتشف مجدداً ما كان خفياً وغائباً عن ذهنه، صرخت ⁂ بفرح ونشوة:

ـ أبي، قررت أن أذهب إلى القرية، وأبدأ بالتلوين هناك.

ـ القرية؟ تساءل إبراهيم بقلق.

ـ نعم، ألم تقل لي، حين أكبر أستطيع الذهاب.. ألا تراني كبيرة الآن، انظر ماذا فعلت، انظر إلى الجدار الملون، هل يفعل الأطفال هذا؟ أنا صبية كبيرة اليوم ولم أعد طفلة.

فهم إبراهيم رسالة ابنته، لا بد أنها بلغت وحاضت.

هز رأسه مبتسماً، وقال:

ـ القرية.. نعم، هذا يتطلب الكثير من العمل.. سأساعدك.. سنلون القرية معاً.

نعم، تطلب هذا منهما الكثير من العمل. كانا يعملان دون توقف،

في الليل كما في النهار. ينظر الأهالي إليهما من بعيد دون التجرؤ على الاقتراب. كان الجميع يسمع بإبراهيم، الذي تحول إلى ناسك أو درويش وثمة من رآه من قبل، إلا أن أحداً لم يرَ الصبية من قبل.

الشخص الوحيد الذي تجرأ على الاقتراب قليلاً هو حمزة، حيث استغلّ فرصة انشغال الصبية بالعمل، ليغافلها ويلعب مع جديها، فنشأت بينهما، بين حمزة والجدي، صداقة سريعة.

أما إبراهيم وابنته، فكانا غارقين في العمل، غير منتبهين إلى أحد، لا نظرات الأهالي المتلصصة من بعيد، ولا حتى وجود حمزة. يعملان حتى الإنهاك، وحين ينال منهما التعب، يستلقيان في الحديقة، ويغفوان هناك، في المكان الذي افتقد دوماً حضورهما، وكان بحاجة إليهما، إلى رائحتهما، إلى أنفاسهما، إلى شهيقهما وزفيرهما.. حتى تستعيد روح المكان ألقها وحضورها.

مضت سنوات دون أن يقترب أحد من هذا المكان. منذ مقتل سلطانة.

نظّف إبراهيم الحديقة بعناية. اقتلع الأعشاب الضارة. النباتات الميتة. قلّم الأشجار الصغيرة. جمع الأخشاب المرمية.. بل وتحول إلى صياد يطارد الحيوانات كالأفاعي والجرذان والقطط المتشردة.. وكل الكائنات الحية التي وجدت مرتعاً لها في تلك الحديقة المهملة.

بعد عمل شاقٍّ ومضنٍ، استعادت الحديقة هويتها كما كانت قبل مقتل سلطانة. بعدما أصبح المكان نظيفاً، راحت ⁂ تمرر أناملها السحرية لتضع لمساتها على الجدران.

بدأت بالجدار المجاور لشجرة الزيزفون، حيث ترقد سلطانة تحت.

كان الجدار متسخاً، مبقعاً، مثقّباً.. وما هي إلا ساعات، حتى أصبح لوحة جدارية خالبة للّب والأذهان.

حين كانت أصابع وأنفاسها تلامس بخفة الأغصان الميتة لشجرة الزيزفون، كانت الشجرة تبدأ بالتنفس والازدهار.. ما أن أنهت لوحتها على الجدار، حتى أزهرت الزيزفونة وعبق المكان بالرائحة.

تجمد إبراهيم ثم الصبية التي كانت منهمكة بطلاء الجدار وتشكيل رسوماتها دون أن تنتبه للحياة التي تدب في شجرة الزيزفون.. تسمّر كلاهما من الدهشة، ثم أطلقا معاً ضحكة طويلة عالية، جعلت حمزة يضحك معهما من مخبئه، دون أن يراه أو يسمعاه.

ليست تميمة وحدها القادرة على تغيير الأشياء وصناعة المعجزات، بل *** أيضاً.

ليست ألوان تميمة السحرية وحدها القادرة على تلوين العالم، بل أنامل أيضاً ولمساتها الحنونة السحرية.

كانت على وشك الانتهاء من تلوين المكان، حين سمعت صوتاً خفياً يقول لها بحنان فائض «شكراً يا قلبي». أعادها صوت والدها إلى الواقع. تمنّت أن تخبره بأن والدتها لم تمت، أن روحها هنا، تحس بها، سعيدة بها، تتحدث إليها.. إلا أنها، ولا تعرف لماذا، آثرت الاحتفاظ بأحاسيسها لنفسها.

كانا يتقاسمان العمل، إبراهيم ينظّف، و*** تلون الأشياء بعد

تنظيفها. ومع بعض الزمن، تحولت الحديقة إلى جنة حقيقية. ليس فقط بفضل الألوان الخلابة واللوحات البديعة التي رسمتها *** بل أيضاً، بسبب النمو المباغت لكثير من الزهور والنباتات، امتلأت الحديقة بها.

بعد كل سنوات اليباس، نحن أمام حديقة حقيقية.

رغم خوف الأهالي، كان جمال المشهد أقوى. كانت رغبتهم عنيفة في التمتع بهذا المشهد البديع، اللوحات، الألوان، الورود، الروائح.. إن رؤية كل هذا فرصة لا تعوّض.

ليست مجرد حديقة، بل مزار للجمال.. مسرح للفرجة.

كان إبراهيم فخوراً بابنته. راح يعانقها كلما وقعت عينه عليها، منادياً إياها «الفنانة الساحرة». ودون أن تنتبه إليه، كان يغافلها مقترباً من شجرة الزيزفون هامساً: «ترينها؟ إنها ابنتنا.. انظري كم هي بديعة وفاتنة». كان موقناً بأن سلطانة ترى المكان، وترى ابنتها على الأخص. المشهد أكثر من مذهل، من خالب للبّ.. المكان الوحيد الملون، بينما خارج حدود الحديقة.. منذ السور الخارجي حتى كل القرية.. ظل كل شيء أحمر.

كان الفضول لدى البعض أقوى من الخوف. فاقتربوا أكثر، وثمة من تشجع منهم للدخول، يشهق من الدهشة. كان البعض، خاصة من الجيل الجديد، أقران يقتربون من اللوحات، يمررون أيديهم عليها بلطف.. كأنهم يتعرفون على اللون باللمس أيضاً لا بالبصر فقط. أخذت تتجول بين الحضور بفرح، واصفة لهم، شارحة أسماء الألوان ودوافعها الانفعالية والجمالية لاختيار الأشكال والوجوه المرسومة.

ابتسامتها الساحرة. صوتها الدافئ. نظرتها الحنونة.. كل ذلك شجع المزيد من التوافد.. كانوا، ما أن يقفوا إلى جوارها، حتى يشعروا بطمأنينة غريبة، بألفة غامضة، وكأنهم يعرفونها منذ زمان بعيد، لا معرفة عادية فحسب، بل معرفة حميمية، كما لو أنها من عائلاتهم البعيدة، كأنها من أسرتهم، كأنها كانت في سفر بعيد، وعادت.

توافد الناس وحبهم وإعجابهم وفرحهم، شجع *** على المزيد من الابتكارات.. هذا العدد الهائل من الوجوه الجديدة عليها ـ حيث ظلت لسنوات طويلة لا ترى سوى وجه والدها ووجهها في المرآة ـ فتح مخيلتها لرسم وجوه جديدة، ملامح بقيت في ذاكرتها من وجوه الزوار، وأخرى اخترعتها..

أمضت *** ليلة كاملة داخل غرفة سلطانة ترسم وجهاً واحداً، تتخيله كأنه جالس أمامها. كانت مصرة على الرسم في غرفة سلطانة، لأنها توحي لها بالوجوه والصور. لم يكن ثمة صورة لأحد أفراد العائلة، ربما لم تكن الصور معروفة في ذلك الزمان.. ولكنها حين نامت في بداية الصباح، في ذات اللحظة التي أشرقت فيها شمس النهار.. دخل إبراهيم عليها ليشهق من الرعب والدهشة.. كانت اللوحة تحمل وجه سلطانة مبتسماً!

إن لم يخبر إبراهيم ابنته بأن الوجه المرسوم هو وجه والدتها، فثمة من سيفعل من الزوار الذين عايشوا سلطانة.. كان زوار الحديقة/ المعرض، يزدادون يوماً تلو الآخر.. كان إبراهيم متأكداً من أن سمعة الرسوم والألوان والورود وسمعة ابنته على الأخص ستجلب أشخاصاً من جميع الأنحاء والأرجاء، لا بل قد تجلب صديقات أمها، اللواتي لا يزلن في القرية، سميرة وزهرة وعائشة. وستعرف

الصبية أنها، وبنحو غامض لم يفهمه إبراهيم، رسمت والدتها، سلطانة.

كانت تلك الألوان مفتاحاً جديداً لباب كبير من السعادة والجمال بالنسبة لـ ***. حيث غادرت البرية الحمراء، غادرت العيش مع الحيوانات والأشجار والنباتات.. لتجد هذا الكم الهائل من الفرح بمقاسمتها العيش لبشر مثلها. كلما رأت وجهاً جديداً، شعرت بمزيد من الفرح، كل وجه، كل زائر، كل شخص جديد، كان ثروة تضاف إلى كنز معارفها.

ليست حياتها فقط من تغيرت، بل تغيرت حياة القرية. صارت الحديقة ملاذاً، مأوىً، للخروج من وحدة اللون، من سلطة الأحمر. كان الأطفال يبكون بإلحاح، كل يوم، للقدوم إلى الحديقة.. ثمة عائلات خيّمت جوار السور.. لأنهم لم يرغبوا بالابتعاد عن جمال المشهد. صارت القرية معظمها هنا، حول سور الحديقة، لا يدخلون كلهم معاً كي يتسنى للآخرين ذلك. انتشر الباعة الجوالون، وانتشرت بعض المواقد، وانتقل الجميع تقريباً، للعيش قرب سور الحديقة.

لأن الجميع هنا. كثرت الفعاليات والنشاطات.

نظمت سميرة مهرجاناً شعرياً مرافقاً للوحات الصبية.

كانت الفتاة ترسم بين الزوار، أحضرت قماشتها البيضاء، حيث لوّنت القماش الأحمر، مصغية لنصيحة والدها، بأن القماش الأبيض هو الحالة الأمثل لتلقّي الألوان الأخرى، وهو السائد في عالم الرسم. فرشت القماشة على سلم الرسم الخشبي، ووزعت ألوانها حولها وراحت ترسم من وحي الحضور، حيث كان

وجودهم يضخ في أعماقها سحراً غريباً وانفعالات قوية، لم تستطع التعبير عن ضغط فرحها، إلا بالرسم.

كان حمزة يتأمل رسومها عن بعد، ويكتب.. كان من جهته، مملوءاً بانفعال رسومها، ريشتها ألوانها.. كان فرحه أكبر من أن يتحمله، فلم تكن لديه سوى القصائد للتعبير عن حجم انفعالاته.

أوانٍ مستطرقة من الانفعالات..

انفعالات الحضور تصب في روح تصبها في لوحاتها، تنصبُّ في روح حمزة، تنصبُّ في قصائده، تنصبُّ مجدداً في روح الجمهور السكران باللون والقصائد والرائحة..

كان الأطفال يتحلقون حولها، يتفرجون على ألوانها، وكانت تداعب البعض منهم أحياناً، بشخط لون ما على أنف طفل، أو يده.. والغريب أن اللون كان يغطي الأحمر، ويبقى، إن لم يغسله الأطفال، وهل يغسلون الفرح؟

كان الجميع هنا، فقط غابب عن المشهد امرأتان.. سلطانة، المتابعة من تحت شجرة الزيزفون، وعائشة التي قضت وقتها في الأدعية والصلوات، خائفة من فرح ولدها وبهجة السعادة في عينيه، كلما تحدث عن

كادت تطير من الفرح. لم تغير ملامح القرية فقط وهي تُدخل اللون، بل غيرت مشاعرهم وانفعالاتهم، كانت فخورة بنفسها، تكاد تبكي سعادة.

أحست أن مكانها هنا. بين الناس، في هذا البيت، حيث عاشت

أمها، واستغربت كيف لم تفكر هي ولا إبراهيم من قبل بالمجيء والعيش هنا، وتذكرت الألوان. لقد منحتها تميمة حياة جديدة وهي تترك لها هذه الألوان. لولاها لما اكتشفت قدرتها الفائقة على صناعة الأشكال والوجوه على الجدران والقماش.

كما غيرت الحديقة، بدأت بتغيير المنزل من الداخل. أعادت طلاء كل شيء.. الأثاث، اللوحات.. أصبح المنزل قصراً فائق الجمال، بل ويمكننا اعتباره متحفاً حقيقياً. المكان الوحيد في القرية، المتحرر من الأحمر، البارز كجزيرة ملونة داخل بحر أحمر، الناتئ كجبل، كتلّة لونية، سابحة في اللون الأحمر.

فُتحت أبواب المنزل لاستقبال الزوار. تحولت إلى جنية رسم. لم تكن تتوقف عن الرسم. امتلأ المنزل باللوحات الجديدة. كان فضول الناس لانهائياً.

كان حمزة يتتبع رسومها، معجباً بل مأخوذاً بها. قالت أمه رداً على إصراره على أن تزور منزل صديقتها المقتولة، وبيتها الذي تحول إلى فردوس، وهو يقنعها برؤية هذا الجمال القادر على تصحيح ذاكرتها المرعوبة من مشهد رأس صديقتها المعلّق والدماء تنقّط منه.. قالت: «أنت لا تتحدث عن الفتاة معجباً برسومها وألوانها.. قلبي غير مطمئن، أعرفك يا ولدي، يا بن رحمي، أخاف مما أراه في عينيك».

بدلاً من أن تحذره، أكدت ما كان يشعر به، ويتساءل عنه، محاولاً التأكد ما إذا كانت تلك المشاعر هي ما يسمونها الحب. كان قلبه يخفق ويشعر بفرح طافح وهو يتأملها كيفما تحركت.

أما هي، فلم تنتبه له، ولم تشعر به. كانت محاطة بالناس، منغمسة في انفعالاتها المستمدة من انفعالات الزوار أمام نتاجاتها اللونية.. كانت منهمّة بالرسم..

وهو، كما لم يكن لديه من وسيلة للتخلص من ضغط انفعالاته سوى الشعر، راح يكتب ويكتب.

شهقت سميرة حين انتبهت فجأة لقصائده: يا للسماء، أنت تكتب بطريقة جديدة، هذا رائع!

كانت سميرة معجبة بكتابة حمزة، إلا أنها وجدت قصائده الجديدة أكثر إبداعاً وتميزاً. أصرت عليه أن يقرأ بعضاً من قصائده للجمهور.. ولم يتمكن، رغم خجله، من التملّص من سميرة، التي وقفت على المنصة ودعته أمام الجميع، فصفق له الحضور، واتجه نحو المنصة مرتبكاً.

بدأ بقراءة قصائده المدونة في الورق.. مثبتاً نظره على الصبية المنهمكة بالرسم والغائبة فيه. ولما انتبهت فجأة إلى قصائده، توقفت عن الرسم ناسية ريشتها في يدها، متسمّرة قبالته وهي تسمعه.

بوغت الشاب بتركيزها عليه، ارتبك وخفق قلبه، حتى خشي من أن يسمع الجميع صوت قلبه الذي تحول إلى طبل. لم يعتد أن تنظر إليه. لم يعتد أن تلتقي نظراتهما. كان يتابعها، ينظر إليها، بينما هي لا تراه.. خاف من ذلك اللقاء بين العيون.. تابع إلقاء قصائده، لكن لا من الورق، بل كان يرتجلها.

كانت عيناه لا تفارق عينيها.. وهي متشبثة بالنظر إليه، ناسية

ريشتها في يدها.. انتبه الجميع إليهما، كأنه يقرأ قصائده لها.. وهي تنظر إليه كأنها تتشرب كلماته.

لم يتمكن من احتمال ذلك الانفعال، ذلك الجمال المدوي.. سقط مغمياً عليه وسط القصيدة.

أحست سميرة بفرح عظيم. أدركت أن سهم الحب قد أصاب الصبي. وتمنت لو أن السهم يعبر قلب الصبية، كي لا يتوجع حمزة بآلام الحب من طرف واحد.

أفاق حمزة من غيبوته. طمأنت سميرة الجمهور «إنها خصوصية الشاعر وحساسيته!». شارحة بأن انفعال الشاب مع الشعر يصيبه أحياناً بتلك الغيبوبة. ابتكرت سميرة تلك الكذبة كي لا تفسد سعادة الحضور بالشعر والرسم ورؤية ورود الحديقة البديعة والاستمتاع بالرائحة أيضاً.

بغتة، شعرت ** بالتعب أيضاً. نهضت راغبة في التجول قليلاً بعيدة عن الازدحام. سألت حمزة، وكان قد أفاق تماماً من غيبوبته، وصحا، وراح يبتسم لها مرتبكاً خجِلاً، سألته إن كان يعرف المكان جيداً، للتجوال قليلاً. خرجا من الزحمة، وفجأة وجدا نفسيهما هناك، إذ اكتشفا معاً ذلك الممر، الذي أغلقته أغصان شجرة الياسمين اليابسة وحولته إلى خرابة.

نظرت إليه مبتسمة وقالت وهي تبرم شفتيها: يبدو أنه لا يزال أمامي عمل كثير!

رد عليها بالابتسامة ذاتها، وبحركة شفتين مماثلة لحركتها: يبدو هذا! ثم أضاف: لا تقلقي، سأساعدك.

نظرت إليه والتمعت عيناها بذلك البريق من الحماسة المشتعلة:

ـ الآن؟

ضحك وتذكر أنها غادرت الازدحام لتتجول وترتاح، إلا أنه أجاب بمحبة طاغية:

ـ الآن.

شمّر الشابان أكمامهما، وبدأا بتنظيف المكان. كسرا الأغصان اليابسة.. حملاها وكوّماها في زاوية جوار الممر.. فتح حمزة فمه مندهشاً مما رأى، لم يكن يصدق عينيه، كلما لامست الصبية غصناً غير مقطوع من شجرة الياسمين، اخضوضر. كانت الفتاة منهمكة بالعمل.. ساعات جادة من التنظيف.. وفجأة.. استعادت شجرة الياسمين رونقها واخضرارها، لا بل، وزهورها البيضاء.. والرائحة.. يا للرائحة!

توقفت الصبية تتأمل المكان، لترى ما بقي من عمل، فقهقهت فرحة:

ـ رأيت؟ أزهرت شجرة الياسمين.

نظر إليها مندهشاً..

نظرت إلى كفيها المخدوشين وقالت:

ـ لم أنتبه جيداً.. لقد جرحت الأخشاب اليابسة كفيّ.

اقترب منها، مستندة إلى جدار الممر الضيق، تظللها أغصان

الياسمين المتدلية فوق رأسها.. أمسك بكفيها بحب.. مسح عليهما برفق.. تدلت أغصان الياسمين أكثر، وحجبتهما.. غرقا في ظل الياسمين، في رائحة الياسمين.. طارت خصلات من شعرها وحطت على وجهه، انتعش فجأة، غمرته رائحتها.. تبادلا نظرة مباغتة.. لم يستطع أحدهما الفكاك من عين الآخر.. اقترب منها أكثر، وأزاح زهرة الياسمين الملتصقة بوجنتها، بلطف، ممرراً إصبعه على خدها بحنان وعذوبة، انفرط معهما قلب الشابة.. اقترب منها أكثر، التصق بها، ودفن رأسه في عنقها.. شمّ رائحتها.. مرّ بأنفه على عنقها، اقترب من أذنيها، من وجنتها، ولمّا وصل إلى شفتيها، جفّ حلقهما من التوتر.. نظر إليها لحظة خاطفة، فارتعشا من الرغبة.. مرّ بشفتيه على شفتيها برفق.. لثم الشفة السفلى.. تأوهت الصبية، فارتجف من اللذة.. لثم الشفة العليا.. راح يمرر شفتيه ولسانه بلطف وبطء وتؤدة على شفتيها.. كما لو أنه طال به الوقت وهو يلثمها بنعومة.. وكأنها لم تطق الصبر أكثر.. ندّت عنها آه محترقة شوقاً، أمسكت برأسه بقوة، وجذبته نحوها أكثر، لينخرطا في قبلة لم يعرف أحدهما طعمها من قبل.. وغابا في غيبوبة الياسمين.

في الطرف الثاني من المنزل، في الحديقة.. تسمّر الجميع، كل في مكانه، مغموراً برائحة الياسمين التي غطّت على كل الروائح، كأن براميل من عطر الياسمين اندلقت في المكان، أو كأن نهراً من ياسمين كان يجري تحت الحديقة.

في الطرف الآخر، في الممر.. نظر كل منهما إلى الآخر، نظرة اختلط فيها الحزن بالسعادة.. وحين فتح حمزة أزرار قميص الصبية وأوغل رأسه في صدرها هابطاً إلى ثدييها، شهقت.. فارتجف

وشعر بنتوء يقفز من بين ساقيه. أخذها من يدها برفق، وأجلسها على الأرض، متمدداً جوارها، أو ربما فوقها.

سرب من الفراشات الميتة، الملونة، نبعت من قعر الشجرة.. كأنها كانت محبوسة في كيس وأفلتت.. ملأت الفراشات الملونة كل أطراف الحديقة، طرف الزوار أيضاً.

مدّ حمزة يده المرتجفة، وأدخلها تحت سروال الصبية، فتنهّدت كما لم تفعل من قبل. وراحت تبحث عمّا بين ساقيه، مكتشفة ذلك البروز. أدخلت يدها تحت بنطاله، وتلمّست انتصابه الدافئ.. أوغل أصابعه بين ساقيها، فذابت روحه في رطوبة ملمسها... كانت تكتشف ذلك الانتصاب الفتي بين يديها، ويكتشف هو ذلك النبع العطِر بين أصابعه... وبينما كانا مستغرقين في القبل، تتجول أصابعه في بركتها الفواحة باللذة، تضغط بأصابعها على نافورته المتفجّرة بالرغوة البيضاء، شهقا معاً..

حين شهقت الصبية شهقتها المختلفة، الأولى من نوعها وهي تتشبث به، تعتصر غصن الياسمين المتدلي حتى وجهها، ممددة على الأرض.. هرست زهور الياسمين.. في تلك اللحظات العالية من الاندماج بالحياة وشغف العيش، بدأت القرية تخلع ثوبها الأحمر.

الجميع منبهر بالتغيير!

بدأ الأحمر ينقلب إلى برتقالي.. ثم أخذ البرتقالي يتحول إلى أصفر، ها نحن نرى البرتقالي والأصفر.. ثم ظهر الزهري.

يا للجمال! الألوان في القرية أيضاً.

راح الأهالي يحتفلون بالألوان غير مصدقين ما يرونه. ثمة من فكّر طويلاً وطرح الكثير من الأسئلة حول سبب التلوّن. من أين يأتي هذا التلوين؟ لماذا؟ كيف؟ بفضل من؟ بفضل ماذا؟

دون العثور على الأجوبة، راحوا يحتفلون.

ها هم يحتفلون بزوال اللعنة.. لعنة الأحمر.

أزرق عابر

ما هي إلا عدة أيام، حتى أفاق الناس على لون جديد.. الأزرق.

طار صواب الأطفال والشبيبة الذين ولدوا في الأحمر: «يا له من لون!». أضحى الأزرق سيد الألوان.. امتلأت أرواحهم بالطمأنينة والسلام والفرح الهادئ.

أصرت على العيش في منزل جدّيها، والدي أمها.. بينما لم يستطع إبراهيم التخلي عن حياة البرية. كانت حياته هناك، حيث التقى سلطانة.

رغم أنه تعرف جسدها في هذا المنزل، ورغم أن جسدها الآن مطمور في حديقة هذا المنزل.. كل ذلك يشعره بالخوف، والكآبة. كان المنزل يذكّره بأن حبهما الجسدي هو الذي أدى إلى مقتلها. بينما حبهما الروحي في البرية، كان دون آثار.. ناسياً أن ذلك

الحب الروحي هو الذي قادهما نحو اللقاء الجسدي، وأن الأرواح تلتقي وتتقارب عبر الجسد أكثر.

ترك إبراهيم ابنته عدة أيام.. وغاب في البرية.

كان قلقاً على ابنته، ولم يتمكن من أن يشرح لها، إذ يجد الآباء صعوبة في هذا، مهما توطدت علاقتهم ببناتهم. فأوكل مهمة الشرح لصديقات سلطانة الثلاث: زهرة، سميرة، عائشة.. لتشرح كل منهن، بمفردها أحياناً، ومع الأخرى، أو ثلاثتهن معاً، العلاقة المحرمة بين الرجل والمرأة.. ورغم تحذيرات إبراهيم من المبالغة، ورجائه ألا ينقلن لها ما وقع لأمها، عرفت الصبية ما حلّ بأمها، ولم تتوقف عائشة عن نقل كلماتها المختلطة بخوف آني، وكأن سلطانة قتلت للتو «يذبحون البنت التي تنام مع الرجل دون زواج وإشهار أمام الملأ».

رغم قلقه الغامض، استراح قليلاً لتطمينات النسوة، فترك الصبية وذهب للتفرغ لحالاته، حيث لا يتنفس ولا يشعر بالراحة إلا هناك، في البرية.

توسل حمزة إلى الصبية أن يقضي الليل معها. كان يرغب فقط في تأملها وهي نائمة. إلا أنها رفضت دوماً، مخافة أن يعود أبوها ويباغتهما معاً.

شرح حمزة طويلاً، بأن إبراهيم لن يكرر ما فعلوه بحبيبته. لكنها لم تجرؤ على المغامرة.. مؤجلة كل شيء، لحين عودة والدها من عزلته المؤقتة، التي يحتاج لها.

ولأنهما عاشقان.. بعد لقائهما الدافئ في ممر الياسمين، لم يتمكن

أحدهما من التملص من حضن الآخر.. تسلل حمزة إلى غرفتها، في تلك الليلة.

في صباح اليوم الأزرق، كما سيوثقه الأهالي، حين أفاقوا على اللون الجديد، مضافة إلى الألوان الثلاثة الأخرى.. كان حمزة قد قضى ليلته بكاملها في سرير سلطانة.. السرير ذاته الذي نامت فيه سلطانة.

في تلك الليلة.. تعريا للمرة الأولى.

للمرة الأولى، نظر إليه. نظر حمزة إليه جيداً. وللمرة الأولى رأته... رأته بعينيها، وكانت قد لمسته فقط، ولم تنظره هكذا.

كما لثم شفتيها ببطء، تحت عريشة الياسمين.. أخذ يلثم الشفتين بشفتيه.. لا بلسانه. وكما أطال لثم شفتيها بعذوبة، أطال لثم الشفتين في الأسفل، بعذوبة أعلى.

وكما لم تطق ذرعاً، بانتظار لسانه، وهو يلثم شفتيها، فجذبته من رأسه، وانخرطا في قبلة عميقة.. لم تتحمّل الصبية النار التي اتقّدت بين ساقيها، ففتحتهما، وضغطت برأسه، بين ساقيها.

كما أولج لسانه في فمها، تحت عريشة الياسمين.. أولج حمزة لسانه.. فكادت حسناؤه تغيب عن الوعي.

مع أن أغصان الياسمين كانت تتسلل من النافذة، إلا أنه كان يشم رائحة غامضة من خلايا جسدها.. كلما قبّل خلية في جسمها، نضحت أكثر بتلك الرائحة.

لم يتنبه أحد من قبل، إلى هذين الأمرين، الذين تنبه حمزة إلى

أولهما منذ البداية، بداية لقائه بالفتاة، وتنبه للثاني للتو، وهو يوغل في خلايا جسدها، ويستنشق رائحتها بعمق، الأمر الذي دعاه ليقترح عليها ما يربط بين هذين الأمرين.

أما الأمر الأول الذي غاب عن أذهان الجميع، بسبب ذهولهم بالمشهد الجديد برمته، فهو أنه لم يعرف أحد اسم الفتاة، ولم يخطر في ذهن أحد، أن يسأل عن اسمها.

كان الجميع، حتى صديقات سلطانة الثلاث، يدعونها، كما إبراهيم بـ عزيزتي، غاليتي، وردتي، قمري، قلبي.. لكن لم يستخدم أحد اسماً خاصاً بها لمناداته به.

الأمر الثاني الذي لم يكن متاحاً لأحد اكتشافه، إلا حمزة، لأنه تسلل إلى مسامات جلدها، وتنشّق بعمق رائحتها، هو رائحة الصبية.

كان حمزة يدس وجهه هناك، في أسفلها.. من هناك، اكتشف الرائحة أكثر... فاضت الرائحة أكثر.. تماماً كما لو أنه هزّ نبتة الريحان.

في جوف الصبية التي كانت بلا اسم دوماً، حيث دس حمزة رأسه، كأن نهر من الريحان يسير هناك.. قال لها مستمتعاً برائحة الريحان، وطعمه، وهي تشهق من المتعة. تركها معلقة وسط المتعة، مكتشفاً التسمية، صارخاً بفرح الاكتشاف:

ـ وجدتها..

تراجعت في درجة أورغازمها، لتسأله بدلال:

ـ ماذا وجدت؟

ـ الرائحة..

أخرج رأسه من بين ساقيه.. وارتفع نحوها.. قبّلها وقال لها:

ـ منذ اليوم أنت تدعين ريحانة.. ثمة ريحان ينمو في داخلك ولا نراه.. رائحتك مثل رائحة الريحان، أنت ريحانتي..

تمتمت بكلمات لا معنى لها، متمنية أن يتابع ما كان يقوم به للتو. لم يفهم ما قالته، ولكنه شعر برغبتها.. هبط مجدداً إلى نبع الريحان.. ثم دسّه فيه، مبللاً نافورته برطوبة الريحان.

منذ تلك اللحظة صار للصبية اسم.. وصارت تدعى ريحانة.

ومنذ ذلك اليوم، ستعلن اسمها على الجميع، ليتوقفوا عن مناداتها بالألقاب «الجميلة، الفنانة، عزيزتي، غاليتي..»، بل سيناديها الجميع بـ ريحانة.

في الصبحية الزرقاء، وقبل أن تصبح هكذا، زرقاء.. أفاقت ريحانة من النوم باكراً. جمعت ملاءة السرير المبقّعة بالدم وزهر الياسمين المهروس.. نقعتها في الماء، ثم رشت الماء المصبوغ بأحمر عذريتها، فوق قبر أمها. كأن نداءً سرّياً قادها إلى هناك، إلى أن تدلق الماء الملوّن بحمرة أنوثتها، تحت شجرة الزيزفون.. إذ بغتة.. طلع الأزرق!

كأن روح سلطانة انتشت بذلك الماء.. كأن روحها كانت جافّة وارتوت.. كادت روحها تملأ القرية فرحاً وقهقهة.. لقد عرفت ابنتها طعم اللذة.

لم يكف الأهالي عن البحث.. خوفاً من فقدان نعمة الألوان، والأزرق، الأبهى، على الأخص. راحوا يفتشون عن سر منح الأزرق لهم.. سر انزياح لعنة الأحمر.

عائداً من بعيد.. إبراهيم.. كلما اقترب من مشارف القرية، أذهله اللون.. انتبه إلى وجود الأزرق، فتنه.. لكنه أقلقه أيضاً.

وحده كان متأكداً من أنه لا قصص كثيرة، ولا تفسيرات عديدة لسطوة الأحمر.. ما الذي غيّر سلطانة، ما الذي جعلها تسامح، وتغفر، وتمنح بعض الألوان، ساحبة لعنة الأحمر؟

مقترباً من مشارف القرية، كان قلبه يخفق بقلق غامض، قرر على الفور، ما أن يصل، حتى يسحب ابنته رغماً عنها إلى البرية.. خائفاً من لعنة جديدة.

إلى حد ما كان مسؤولاً عن عدم منع كارثة الأحمر. كان مسؤولاً عن سلبيته وعدم قدرته على حماية حبيبته، حيث توسلت إليه ليهربا.. كانت موقنة أنهم سيقتلونها.. لن يترك ابنته في القرية.. كان يفكر هكذا، وهو يتصبب عرقاً من الغيظ والحنق والقلق.. يجب أن أعود بها، رغماً عنها، لا مكان لنا سوى البرية.

عطشا، وقد احتدت شمس الصباح بغتة، توقف أمام أحد البيوت في أول القرية، طالباً بعض الماء. السيدة العجوز التي كانت تسقي زهور حديقتها، السيدة التي لم تعرفه، ولم تره من قبل، قالت له وهي تناوله الماء:

ـ اشرب حتى ترتوي يا ولدي.. لقد أصبحت الحياة جميلة. أشكر السماء.. إذا متُّ غداً، فلن أموت في حسرة اللون.

ـ أنت سعيدة بالألوان؟

ـ خاصة الأزرق، كنت أحبه، كان لوني المفضل.. لقد عشت في ذلك الزمان، حين كان ثمة الأزرق والأخضر والأبيض والبنفسجي.. انظر إلى حديقتي.. ثمة زهور ملونة.. كانوا يسمونني بملكة الأزرق.. أرتدي الملابس ذات اللون الأزرق، وأضع عقداً أزرق في عنقي.. لا تتصور كم أنا سعيدة يا ولدي.

سألها بغباء، ليته لم يفعل:

ـ وما هو سبب عودة الألوان.. كيف عاد الأزرق يا سيدتي؟

ـ أولاً تعرف؟

ـ كلا.. أجاب إبراهيم مندهشاً!

ـ الحديقة السحرية.

ـ أية حديقة؟ سأل وقلبه يرتجف خوفاً.

ـ الحديقة التي تعيش فيها الجنية مع عشيقها..

سقط دلو الماء النحاسي من يد إبراهيم.. تصبب العرق أكثر من قبل.. ترك العجوز متابعاً طريقه دون أن يلقي عليها السلام أو يشكرها. راح يقنع نفسه بأنها امرأة خرفة لا تفقه ما تقول.

في طريقه، صادف رجلين يثرثران، وقد اقترب قليلاً من المنزل.. حيث ترك ابنته. شعر برغبة عنيفة في سؤالهما بسذاجة:

ـ عفواً، هل القرية تحولت أم أنني مصاب بخلل في الرؤية، أم أننا لسنا في القرية الحمراء؟

ـ لا لست مخطئاً، القرية الحمراء تبدلت منذ فترة، ومنذ يومين صار عندنا هذا الأزرق البديع. أجاب أحد الرجلين.

ـ كيف حصل هذا؟

ـ يقال إنها تلك الفتاة الجنية. أجاب الرجل ذاته.

ـ جنية؟

ـ نعم، إنها الفتاة ذاتها، التي جلبت اللعنة وقتلوها. تقمصت فتاة غيرها، لها الملامح نفسها، إنها الساقطة ذاتها. أجاب الرجل ذاته، بينما ظل رفيقه صامتاً يهز رأسه بأسى.

ترك إبراهيم الرجلين غاضباً، دون أن يلقي عليهما التحية.

التقى بعدة أشخاص وهو يقترب من المنزل، وطرقت مسمعيه الكثير من العبارات، كلما استوقف أحداً ليسأله عن سر الأزرق، كما لو أنه يريد أن يفيق من حلم أو كابوس، منتظراً أن يخبره أحد ما، بما يطمئنه، إلا أن الجميع أشار إليه، بما يؤكد خوفه.

«عاهرة الحديقة»، «روح العاهرة القديمة»، «منزل العاهرات»، «هي ابنتها، تشبهها»، «العاهرة التي حملت دون زواج»، «العاهرة الجديدة حامل»....

يتصاعد الدم إلى رأس إبراهيم.. يكاد يفقد عقله.. يكاد يقع على الأرض، يتصور ابنته عاهرة فاتحة ساقيها لرجال القرية.

كيف هبط بها إلى هنا. كانت عذراء نقية، لم تمسسها يد ولم تبصرها عين.. كيف جاء بها من أرض القداسة في البرية الطاهرة، ليهبط بها إلى الأرض الدنسة. لقد تلوثت ابنته بمني الذكور..

كما لو أن شيطانا سكنه وحل محل روحه الطيبة.. أضاع إبراهيمُ إبراهيمَ، وطار صوابه.

كان الغضب يتطاير من رأسه شرارات من العنف..

بوصوله أمام البوابة.. ظهرت ريحانة أمامه بثوبها الأزرق رابطة شعرها بشريطة صفراء. غاب وجه ريحانة عن والدها. ورأى أمامه عاهرة القرية التي ضاجعت الرجال، ولوثت طهارتها. كان وجهها ينز بالغواية. أليست الأنثى هي التي أغوت آدم وتسببت بطرده من الجنة؟ من أين قفزت هذه الصورة إلى رأسه.. حاول مقاومة قرفه من منظرها أمامه.. حاول ألا يراها دنيئة وساقطة.

كانت تقف تحت عارضة البوابة الحجرية.. تماماً في المكان الذي عُلق فيه رأس سلطانة المقطوع.

كانت تبتسم له بفرح. كانت عاشقة، وكان الفرح يتطاير من عينيها.

كان غاضباً، حاقداً، ناقماً.. من أين تنبع كل هذه النقمة.

كيف تتكرر المواقف ذاتها. يمشي الزمن ولا يمشي. الأحداث ذاتها.. هل نحن في بداية الرواية أم نهايتها؟ هل الرأس المنفصل عن الجسد، هو الرأس الذي رأيناه في أول الرواية؟ ماذا يفعل هنا، وقد اقتربنا من نهاية الحكاية؟

ـ تعالي!

قال إبراهيم لريحانة، دون أن يعرف أن لها اسماً الآن.

ـ اقتربي، لا تخافي، لن أوجعك.

ابتلعت ريقها برعب، وقد رأت وجهه يتغير، وسمعت صوتاً غريباً يخرج من صدره وفمه:

ـ ماذا أنت فاعل بي؟

ـ ليس أنا.. إنه القدر.

ـ ستقتلني؟

ركعت تحت قدميه:

ـ لا تقتلني.. أتوسل إليك.. الرحمة أبي..

فرّت من أمامه مرتمية تحت شجرة الزيزفون، حيث ترقد أمها، تمرغت في التراب مستنجدة بروح أمها:

ـ أمي، ساعديني.. لا أريد أن أموت.. ساعديني لأحيا.. ساعديني لأتابع تغيير العالم.. أمي تدخّلي من أجلي.. امنعيه من قتلي.. أمي.. هل ترضين لي بما وقع لك.. أمي، لقد بدأ العالم يتلون، لا تحرمي البشرية من الخلاص..

تلوث ثوبها الأزرق بالطين، وانخدش وجهها من خشب الشجرة والتراب.. فامتلأ بالبقع، بين الدم السائل من خدوش وجهها، والطين العالق من التربة.. صارت أكثر بشاعة، وقد احمرّت عيناها وتورمتا من البكاء.. سحب إبراهيم سكينه الحادة التي كانت لا تفارقه من أجل الصيد.. وغرسها في عنق ابنته.. كما يجز عنق طريدته، سقط رأس ريحانة، التي لم يعرف باسمها، فوق مرقد سلطانة.

حين وصل حمزة، كان مشهد القتل مكتملاً!

أصبح كل شيء أحمر بغتة.

خرج الأهالي هلعين من منازلهم.. كل شيء أحمر.. لعنة الأحمرين، أحمر سلطانة، وأحمر ريحانة.

بكت القرية كما لم تفعل يوماً.. إحباط لعنة الأحمر. خيبة فقدان اللون، حتمية اللعنة الحمراء..

سقط إبراهيم ميتاً من القهر.

كانت عيناه مفتوحتين تحملقان في عينيّ الرأس المستلقي جوار رأسه.. العيون الأربع مفتوحة تحدق بألم ورعب ولا فهم.

بكت القرية، بكى العالم!

كل شيء عاد ليصبح أحمر. الأغصان، العشب، السماء، الجدران، شجرة الزيزفون.. كله أحمر!

إنه الهيجان الأحمر، الغضب الأحمر.

من أين ينبع هذا الأحمر؟

مطر.. مطر.. وحل.. طين.. سيول حمراء تطوف هنا وهناك.. فيضان من الأحمر.

الكل مبلل بالأحمر.. ينقّط الأحمر من ملابس الأهالي، من أجسادهم.. فاضت القرية بالأحمر.

طافت الأنهار الحمراء، واندلقت الشلالات الحمراء.. اكتسح الماء الأحمر القرية، وأغرق كل ما صادفه.

ـ النجدة..

ـ أين نذهب؟

علت صرخات الأهالي.. من يعرف السباحة، سبح في الأحمر، ومن لا يعرف، أغرقه الأحمر.

رائحة الدم تثير الغثيان.. رائحة واخزة لا يمكن احتمالها. طعم الدم يتسرب إلى الأفواه.. إنهم يبصقون الدم.. يتلعونه ويتقيأونه.

«انولدت في الأحمر، انطباعي الأول لحظة مولدي كان طعم الدم. دم طاغ.. أول صوت سمعته، لم يكن صوت بكائي، بل صراخ أمي المذعورة، الصرخة التي كتمت صوتي ورغبتي في البكاء ككائن قادم للتو إلى الحياة. لكن عينيها المذعورتين، ووجها الممتقع هلعاً.. قطعوا علي حاجتي إلى البكاء.. فدخلت العالم بصمت، بصوت مكتوم.. بخرس! كانت أمي تتلفظ آخر أنفاسها، تقاوم لحين وضعي.. اليوم.. أنا القتيلة.. الغارقة في الدم. وُلدت في دم أمي المقتولة، ها أنا أموت في دمي، مقتولة أيضاً».

كانت ريحانة تناجي العالم بكلماتها قبل أن تفارق الحياة تماماً.. رأسها منفصل عن جسدها.. عيناها تتأملان جسدها المستقل عنها.. حائرة في حجم الدم الذي يُهدر بسبب الحب.. ليس أمامها وقت كبير للتفكير.. ستفقد كل أحاسيسها بعد لحظات وستستسلم للموت النهائي.

همست سلطانة إبراهيم، وكانت ريحانة تسمع، شبه دائخة، بين سكرات الموت واللاموت بعد.

ـ ألم أتركها أمانة لديك؟ ألم تعدني؟

ـ لست أنا سلطانة، لم أقتلها.. هم قتلوها.. استعاروا يديّ لذبحها.. كانوا يسكنون رأسي لقتلها.

ـ لن أغفر لك ولا لهم، سأغمر القرية بدمي ودم طفلتي.

ـ أفهم غضبك، وأنا غاضب.. لم أتصور الأمر هكذا.. كنت وحدي قبالتهم جميعاً.. أفهم الآن لماذا وافق أهلك على ذبحك.. نحن نستسلم في لحظة أمام إرادة الجموع.. كنت مجبراً على ذبحها بيدي، وإلا ذبحونا.. ذبحوها أمامي، ثم ذبحوني.. بيدي، أنا أبوها، أرحم منهم، لا بأيديهم يا حبيبتي.

تسمع القرية صوت نواح، لا يُعرف مصدره.. سلطانة تنوح بألم شديد.. أنين يخترق الأسماع، يكسر جدار الصوت.. يطن في الآذان.. أنين ريحانة.. .ألم وبكاء ونواح.. حداد تمارسه الطبيعة.. كل شيء حزين وخائف، كل روح حية، خائفة وغاضبة وموجوعة.

حمزة واقف أمام قبر سلطانة.. يحفره مجدداً، يفتحه ويدفن ريحانته مع والدتها.. تفتح سلطانة ذراعيها وتحتضن ابنتها.. لا يقبل حمزة بدفن إبراهيم.. ناقماً. تهمس له ريحانة، من تحت تربة الزيزفون: ادفن أبي.. إنه أبي.. لا تنسَ هذا.

يغلق حمزة بوابة المنزل.. تاركاً الثلاثة مدفونين، وقد عادت حديقة

المنزل خرابة.. اللون الوحيد هو الأحمر.. رائحة الدم تسد الأنوف.

يكتب كلمة ويعلقها على بوابة المنزل الحديدية.. ثم يجلس قرب الباب، دون حراك، محتضناً جديَ ريحانة.. يتلصص السكان من بعيد ليقرأوا الكلمة:

النهاية

أسود

التقيت في باريس، المدينة التي أعيش فيها منذ سنوات قليلة، بشخصية مهمّة على الصعيد السياسي النضالي. كان الرجل مريضاً، وجاء إلى باريس بهدف العلاج. ذهبت برفقة بعض الأصدقاء، كما تتطلّب العادات، لنتمنى له الشفاء.

كنت المرأة الوحيدة، بين مجموعة ذكور، وهذا لا يفاجئني كثيراً، إذ اعتدت، كغيري من النساء، أن نكون أقليّة في أي تجمّع فكري أو سياسي.

رغم الحالة الصحية للرجل، التي أضفتْ عليه دماثة ولطفاً مختلفين، شعرت بموقفه الأبوي نحوي، كامرأة وحيدة تعيش في مدينة كبيرة، دون عائلة أو أهل، وتسكن وحدها. ورداً على أبويته، ذكرته بأنني كاتبة، وأن هذا اختياري، وأنني مهتمة، ضمن كتاباتي، بقضية المرأة وتحررها، وخاصة، بقضايا الشرف في مجتمعاتنا.

نظر إلي الرجل بهدوء، وهو حقوقيّ، حاصل على شهادة عليا في الحقوق، ومعارض سياسي أُعتقل لسنوات، وتعرّض للضرب والتعذيب، إلا أنه قال لي، ولم أفاجأ كثيراً، فهو أبي، أو يشبه أبي ومعظم الآباء الشرقيين: «تعرفين، لو أن ابنتي خرجت عن الشرف، لقتلتها».

راح يشرح لي دوافعه الاجتماعية، حين أعلنت عن غضبي، رغم حالته الصحية، لأنه «محام»، تاركة على جنب، أنه «سياسي معارض مستعد للموت من أجل الحرية في البلد»، فقال لي: «إن لم أقتلها، فإنني مضطر لقتل نفسي، وقتل عائلتي المجتمع سينبذني.. لن أستطيع الخروج من البيت مرفوع الرأس، سيبصقون عليّ، قتل ابنتي، رغم أني أحبها وأعبدها، يحررني وينقذ أبنائي وأبناء إخوتي، وكل رجال ونساء العائلة».

كنت أقول لنفسي طيلة الزيارة، لو أن حزب هذا الرجل نجح في الوصول إلى السلطة، فإنه لن يحدث أدنى تعديل في قوانين العقوبات التي تحمي قتلة النساء بدافع الشرف.

نشأت في بيئة غنية بقصص الشرف والقتل بسبب الشرف، منها الخيالي ومنها الواقعي، إلا أنني أُحطت دوماً بمجموعة تعاليم وتحذيرات من الوقوع في خطيئة الشرف.

تفتّح وعيي، منذ طفولتي المبكرة على قضايا الشرف. الناس حولي، في البيئة التي أنتمي إليها، يتحدثون عن سير النساء المقتولات أو ذوات السمعة السيئة، واللواتي يستحق القتل، بكل اعتيادية... أحاديث ترافق قهوة الصباح أو شاي الظهيرة، أحاديث للتلذذ والتسلية. أمي، متتبعة سرد أبي، كانت توثّق شفهياً لقصص القتل،

مستمتعة برويها على مهل، وعلى دفعات، بل ومضيفة إليها، على طريقتها السردية، وفقاً لمخيلتها، ومعدّلة في القصص أحياناً، لا بهدف الكذب، بل بسبب المخيلة التي تصدقها، فتخلط ما حدث بما لم يحدث.

نحن بنات الحي أيضاً، كنا نتبادل هذه الحكايات بمتعة. مضيفات إليها الكثير من التعديل والمخيلة والتحفيز والإثارة.. مخترعات أحياناً القصص عن الليلة الأولى، وغشاء البكارة السحري.

«قتلها خالها لأنها لم تكن عذراء.. كان ينام معها، قتلها ليخفي جريمته..»، «قتلها أخوها ذبحاً أمام عتبة الدار، لأنها لم تكن عذراء.. مع أنه لم يمسسها أحد.. كان غشاؤها مطاطياً، لكنهم لا يعرفون بهذا»..

كانت العذرية تشكل هاجساً قوياً عندي.. كنت أفكر بعمق وأتذكر إن كان سبق أن وقع لي حادث ما في طفولتي ونسيته... أو إن صادف وكان غشائي مطاطياً ولم أنزف في ليلتي الأولى، سيذبحونني؟؟؟

حدث أن علق نتوء حديدي لسور الحديقة بين ساقي بنت جيراننا فتحية، فنزفت.. أخذتها أمها برعب إلى الداية، للتأكد من أن غشاءها لم يُمس من سور الحديقة، وطلبت من الداية القانونية وثيقة تثبت تعرّض ابنتها للحادث.. رغم تأكيد الداية لعذرية فتحية، لكن أمها أرادت حماية ابنتها من احتمال تمزق الغشاء لاحقاً، بسبب نتوء سور الحديقة!

لا أنسى وجه قريبتي، حين جاءت ابنتها فرحانة، وهي طفلة لا تتجاوز الخمس سنوات: «ماما، عمو الطالب عطاني خمس ليرات

وباسني». هرعت قريبتي، بصمت وحذر، برفقة أمي، إلى بيت الطالب الغريب الذي يقطن حارتنا، وهددتاه بأنه إن عرف رجال العائلة بالحادثة سيذبحونه. أقسم الشاب أنه لم يمس الطفلة، وأنها مثل ابنته أو ابنة أخته أو أخيه، وأنه قبّلها من جبينها، ولم يمسّها بسوء.. لا أزال أذكر كيف رمت قريبتي طفلتها على الأرض، وأنزلت لها بنطالها وسروالها وراحت تتفحّصها برعب...

ثمة الكثير من المشاريع السياسية المعارضة، وكثير من الدعوات إلى الحريات السياسية، لكن قضية الشرف، وحرية المرأة الجنسية، تبقى دوماً مشروعاً مؤجلاً في أحسن الأحوال، بل ينظر إليها دوماً، بعين الحذر، والشك، والاتهام غالباً.

المعارض السياسي، المحامي، المستعد لقتل ابنته فيما لو قامت بفعل يمس شرف، ليس حالة استثنائية، بل الاستثناء هو العكس. كثير من الرجال، والنساء غير قادرين على التحرر من النظرة التأثيمية للجنس، وخاصة تأثيم المرأة، باعتبار الرجل «فحلاً»، وبوصف المرأة «عاهرة، أو زانية..».

من المحبط فعلاً (لا أريد استعمال لفظة عنيفة بدل الإحباط)، أننا لا نزال حتى اليوم، نسمع، وفي كل يوم تقريباً، عن امرأة قُتلت بسبب الشرف. ولا أريد أن أبرر بأن أغلبهن عذراوات، قُتلن، في حالات شك فقط، أي، لم يقمن بالفعل الجنسي الكامل، لأنني لا أقبل بأي تجريم للفعل العاطفي، مهما كانت درجة أو مستوى التعبير عنه.

حاولت إعداد تقرير عن جرائم الشرف في العالم العربي والإسلامي، ولدى الديانات الأخرى، فوجدتني أغرق في ملفات

مطولة من القضايا، ووجدتني أتجاوز حدودي الروائية، لهذا اكتفيت بهذا الفصل «الأسود» من الرواية، تاركة هذه البحوث للمختصين.

ليقم أيا منكم في جولة عبر الإنترنت، مجرد أن يضع كلمتي «جريمة شرف» في محرك البحث يأخذه الوقت، ولن ينتبه وهو يقرأ ويقرأ، ولا يصدق، كأننا في زمن بربري، يقتل دون رأفة، وبموافقة القانون.

خذوا هذه العناوين مثلاً:

ـ جريمة شرف هزت الإسكندرية

ـ جرائم الشرف في تركيا: مقتل خمس سيدات يومياً. جرائم القتل من أجل الشرف زادت في تركيا بنسبة ١٤٠٠٪

ـ ضحية شرف في الأردن بثلاثين رصاصة

ـ جرائم الشرف تهز الهند

ـ جرائم «الشرف» تحصد المزيد من الضحايا في سورية

ـ فيديو يعرض مشاهد عملية قتل الصبية دعاء

رغم الجهود الكبيرة التي تبذلها المؤسسات المدنية المدافعة عن حقوق المرأة، وجهود الناشطين والناشطات، ورغم تخصيص يوم عالمي هو ٢٩ تشرين الأول، يوماً لذكرى ضحايا الشرف.. فإن شلال دم النساء لا يتوقف. تستوقفنا يومياً أخبار قتل النساء بدافع الشرف. من الصعب الحصول على إحصائيات عالمية.. لكنني أشعر بأن ثمة امرأة ما في العالم، تُقتل كل يوم.. أنا واثقة أن ثمة أكثر من ٣٦٠ امرأة ضحية قتل بسبب الشرف في كل سنة.. لهذا

فإننا جميعاً نعيش في الفصل الأحمر، فصل نقمة الدم.. ولن يمكننا الذهاب إلى الفصل التالي، الأخضر، إن لم يتوقف مسلسل القتل المروع هذا. ولضرورات فنية، سنذهب في زيارة مفترضة إلى البرية، بوصفها خضراء.. في الفصل الأخير المُنتظر: الأخضر.

أخضر

«هذا الفصل لم يحدث بعد، فصل مُتخيَّل، منتظر، مأمول»

«نهدايَ صغيرانِ يكْبُرانِ تحتَ خيوطَ ثوبيَ البالي يا بناتُ
كلَّما لمستُ خيطَ حريرٍ نسجتْه أمِّي
تصلَّبتْ مشمشتايَ المدوَّرتانِ
وكلَّما رأيتُ مِغزلَ جدِّي مهملاً في الرُّكنِ
انفرجتْ شفتانِ ساخنتانِ تحت سُرَّتي
أنا من أنام جوار شقيقاتي
مهدودةً من التَّعبِ آخرَ النَّهارِ يا بناتُ
كلُّ واحدةٍ منَّا تحلمُ بثوبٍ أبيضٍ من حريرِنا
أنا ابنةُ صُنَّاع الحريرِ الفقيرةِ يا بناتُ

نصنعُ الحريرَ

ولا نجرؤ على ارتدائه

يا بناتُ»[١٤]

هذه إحدى قصائد أميرة. أميرة التي وصلت القرية ذات نهار جميل. لا أحد يعرف من أين جاءت، ولا كيف وصلت.. بغتة، ظهرت في القرية.

فتاة فائقة الجمال.. ساحرة.. جمال القوام، ذكاء، مخيلة، وموهبة.

شاعرة من نوع خاص. حطمت جميع قواعد الكتابة، شكلاً ومضموناً.. شاعرة مخرِّبة!

لا أحد يعرف أصولها، عائلتها، ماضيها، أو حتى عنوانها. كأنها خرافة، أو حكاية. كأنها تنام في السماء، وتسكن في الغيوم، أو تكتب في الماء.

كأنها عجينة من كل هذا، خليط من ماء ونار وتراب وهواء.. عاقلة، رصينة، هادئة.. ومجنونة، صاخبة، منفلتة.. كأنها الله والشيطان معاً.. إنها شاعرة.. وهذا لا يخفى على الشعراء.. هذا الخليط السحري ليس بجديد على الشعر.

«الشاعرة رائية ومفترسة».. ترد على رامبو: «الشاعر راءٍ وملعون».

«المرأة التي أنجبت العالم، يحق لها تدميره».

---

(١٤) القصيدة من «مجموعة حرير» للشاعر المصري عماد فؤاد.

«إذا كان في البدء الكلمة، فيجب تخريب العالم عبر الكلمة».

«سوف أحطم هذا العالم لأصنع محله عالماً آخر».

«نحن النساء، الشاعرات، نحن هنا، جئنا إلى هذا العالم، من أجل تغييره».

«لا يمكننا الكتابة وتغيير العالم وتغيير الكلمات إن لم نكن حرّات».

تلك العبارات وغيرها لأميرة، كان يأخذها الشباب والشابات لينسخوها ويتبادلون الحوار حولها.

من جهة أخرى، كان ثمة من يعترض على أفكارها، وعلى وجودها، وتصرفاتها.. وكانوا يصفونها بالساقطة، أو الداعرة، أو العاهرة.

فهي القائلة:

«فقط

إصبعان يفتحان شفتيه برفق

وثالث يحكُّ بظرَها المنتصب

بلا رحمةٍ»[١٥]

وذات يوم، قرر الأهالي وضع حد لكتاباتها الماجنة وأفكارها المؤثرة على الجيل الشاب، فعقدوا اجتماعا ليقرروا مصيرها، حيث اختلفوا على طردها من القرية، أو تركها.. انقسم المجتمعون إلى ثلاث فرقاء:

---

(١٥) من المجموعة ذاتها للشاعر عماد فؤاد.

ـ مع أميرة.

ـ ضد أميرة.

ـ المحايدون.

وبدأ الحوار.

كان الوقت صباحاً.

كل القرية اجتمعت هنا.

جاء الجميع، الكهول، الصبايا، الشباب.. كان ذلك يشبه الخروج في نزهة كبيرة.. نزهة جماعية. أحضرت النساء الطعام والشراب، تحسباً لقضاء العائلة وقتاً طويلاً في المجادلات. كأنهن في عرس، ارتدين الملابس الجميلة، وتعطّرن من أجل هذا الحضور الحافل.. حيث لم يبقَ أحد في منزله، بل جاء الجميع.

ثمة من طالب بقتلها علناً: «اقتلوا هذه السافلة».. علت بعض الأصوات.

اجتمع الكل في وسط القرية.. في الساحة الكبيرة:

ـ «اقتلوها.. إنها تخرب عقول أولادنا، تدعوهم إلى الفسق. قصائدها تضلل عقولهم، وتفسد أفكارهم».

ـ «أليست لدينا وسيلة للدفاع عن أفكارنا سوى القتل؟ إلام نقتل من يختلفون عنّا.. هذه عقلية مختلفة، وثقافة أخرى، يجب أن نصغي إليها ونتعلم منها، لا أن نقتلها».

ـ «لماذا تقتلونها، اتركوها تكتب، ومتى كانت الكلمات تشكل

خطراً على حياة الناس».

ـ «انفوها.. اطردوها من القرية.. لا فائدة من قتلها، ستصنعون منها رمزاً، وسوف تنتشر قصائدها الفاسقة أكثر من قبل».

ـ «يجب قتلها لتكون عبرة لم يفكر مثلها».

اختلفت الآراء، واستمر الجدل طويلاً، بين مؤيد لقتلها، ورافض له، مطالب لنفيها، أو رافض له..

وكما يتكرر المشهد دوماً، إذ يخسر المختلف، الفرد، الواحد، وتكسب الجماعة.

كانت الأصوات المطالبة بقتلها تتجاوز الثمانين في المائة، والباقون فقط كانوا ضد قرار قتلها، بل مع نفيها في أفضل الاختيارات.

وبما أنه لا أحد يعرف عن أهلها، ولأنها دون قرابة، حتى يقتلها أخوها أو أبوها أو ابن عمها و.. فقد قررت القرية، اختيار عشرة رجال للاجتماع على قتلها، واحداً تلو آخر.. ومن تكون ضربته قاتلة، يسمّى بطل القرية، ويقلّد وسام الشرف.

قبل أن يقترب أول العشرة منها.. كفراشة، علت أميرة وطارت.

واصلت طيرانها حتى البرية.. البرية الحمراء التي كانت خضراء ذات يوم. ركض الجميع خلفها، الرجال العشرة وباقي الأهالي. ركض الشيوخ والشباب والأطفال.. النساء والرجال.. الكل ركض نحو البرية.

ـ إنها ساحرة، جنية.. هذا هو البرهان، اقتلوها جميعاً..

ـ إنها مقدسة.. لا تمسوها..

اختلفت الآراء من جديد.

على مرأى الجميع.. خلعت أميرة ملابسها ببطء.. وقفت عارية أمام نظرات الذهول. راحت تغني قصائدها بصوت مؤثر دافئ حنون.. كما لو أن جنياً أو جنية كان يملي عليها الكلمات والألحان.

«هيا يا بنات.. تقدمن يا بنات.. يا بنات الحرية.. انضممن إليّ.. تعالوا مشطن شعري، تعالوا نستحم هنا.. على آثار دماء سلطانة وريحانة.. اقتربن يا بنات أفروديت وحواء وفينوس..».

بغتة، تحولت البرية إلى جنة.. إلى جنة خضراء.

الحوريات هنا.. الفتيات الشابات عاريات جميعهن.. سابحات من مياه تنبع من مكان سحري سري لا مرئي.. تتحول الأرض التي يقفن عليها إلى نبع من مياه صافية، امتلأت فجأة بأشكال من الورود الملونة.

أسقط الرجال سكاكينهم وأدوات القتل، مذهولين.

وسقط مطر غزير..

مطر أبيض شفاف..

نظيف..

نقي..

منعش..

غسل الأحمر.. وتألقت البرية بالألوان.. ولمع الأخضر. العشب الأخضر الغض، النديّ، الجديد.. ربيع كوني خُلق في تلك اللحظة.. تفجرت عيون الماء من هنا وهناك.. استحم الجميع بالمطر وعيون الماء، تراشقوا بالماء، تساقطوا على الأرض فرحاً، تعانقوا، تبادلوا القبلات.. وتضاجعوا..

أقسمت النساء وهن تتنهدن من لذة العشق، مستلقيات تحت الرجال، أنهن رأين وجهي سلطانة وريحانة مرسومين في السماء، ضاحكتين.

هنا، في هذا اليوم، انتهى الزمن الأحمر، زمن الدم.. وصارت الحياة خضراء.. صارت ربيع محبة وعشق وسلام.. حيث تبدأ الحياة من هنا، من البرية الخضراء، حيث ستعود البنات، كما كنّ من قبل، يقطفن أزهار الربيع ونباتاته.. البابونج والأقحوان والزعتر البري.. ويعبثن بالديدان البنية ذات الوبر الكثيف، ديدان الربيع.. ويركضن خلف الفراشات الملونة... من هذه البرية، سترجع الحياة ملونة. ملونة بالحب والفرح وضحكات البنات.. ومن هنا تبدأ سيرة الحب دون قتل.. دون إثم.. سيرة جمال وحرية الحب.

انتهت في ١ آذار ٢٠١١

المؤلفة

كاتبة وروائية سورية

تكتب في بعض الصحف والمواقع العربية.

نُشرت شهادتها عن حرية الصحافة في سورية في التقرير السنوي لمنظمة «مراسلون بلا حدود» لعام ٢٠٠٤.

حاصلة على جائزة هيلمان/هامت التي تنظمها منظمة Human Rights Watch الأميركية في عام ٢٠٠٥

مقيمة في فرنسا.

الأعمال المطبوعة:

«**اللامتناهي ـ سيرة الآخر**» رواية، عام ١٩٩٥، دار الحوار، اللاذقية ، سورية.

«**تراتيل العدم**»، رواية، شركة رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، ٢٠٠٩

«**حبل سري**»، رواية، شركة رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، ٢٠١٠.

دعوة إلى الكتّاب الجدد

تُعلم **شركة رياض الريّس للكتب والنشر**، قرّاءها عن إنشاء فرع آخر لها باسم «**الكوكب**» يختص بنشر الرواية والقصص والشعر والنقد الأدبي. وهي شركة شقيقة وجزء من نشاطات شبكة **شركة رياض الريّس للكتب والنشر**.

وترحب منشورات «**الكوكب**» بالكتّاب الجدد وخاصة الذين لم يسبق لهم أن نشروا من قبل.

أما **شركة رياض الريّس للكتب والنشر** فتستمر بالتوسع في عنايتها بنشر الكتب السياسية والتاريخية والفكرية والمذكرات والسير والتراجم.

Riad El-Rayyes Books S.A.R.L. BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyesbooks.com

"على مرأى الجميع.. خلعت أميرة ملابسها ببطء. وقفت عارية أمام نظرات الذهول. راحت تغني قصائدها بصوت مؤثر دافئ حنون. كما لو أن جنياً أو جنية كان يمليها الكلمات والألحان.

"هيا يا بنات.. تقدمن يا بنات. يا بنات الحرية.. انضممن إلي تعالين مشطن شعري، تعالين نستحم هنا على آثار دماء سلطانة وريحانة. اقترين يا بنات أفروديت وحواء وفينوس."،

بغتة، تحولت البرية إلى جنة. إلى جنة خضراء.

الحوريات هنا.. الفتيات الشابات عاريات جميعهن.. سابحات من مياه تنبع من مكان سحري سري لا مرئي. تتحول الأرض التي يقفن عليها إلى نبع من مياه صافية، امتلأت فجأة بأشكال من الورود الملونة.

أسقط الرجال سكاكينهم و أدوات القتل، مذهولين.

وسقط مطر غزير.

مطر أبيض شفاف.

نظيف.

نقي.

منعش".

(من الرواية)

ISBN 9953-21-504-9
9 789953 215044

الكوكب
رياض الريّس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS